

القسم الثالث

مع بعض الأدباء الأندلسيين

- عبد الرحمن الداخل ، صقر قریش .
- ابن هانيء الأندلسي ، الشاعر الداعية التتيل .
- ابن دراج ، شاعر العاطفة الأسرية والأصالة الأندلسية .
- ابن زيدون ، الشاعر الوزير العاشق .
- المعتمد بن عباد ، الشاعر الملك السجين .
- امية ابن أبى الصلت الأندلسي ، العبقرية العلمية والموهبة الأدبية .

obeikandi.com

عبد الرحمن الداخل

صقر قریش

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، سليل الأمويين
حكام الإمبراطورية الإسلامية العظيمة بعد عهد الراشدين ، ومؤسس الدولة
الأموية في الأندلس ، بعد أن سقطت في المشرق دولة آباءة على أيدي
العباسيين .

ولد عبد الرحمن في إحدى قرى دمشق سنة ١١٣ هـ . ومات أبوه وتركه صغيراً ،
فكلفه جده هشام ، ونشأه تنشئة حسنة . يبدو أن الفروسية والأدب كانا
من أهم دعائمها . . ولما كان في نحو العشرين من عمره ، حلت النكبة
ببني أمية وسقطت دولتهم ، بعد هزيمة جيوش آخر أمراءهم مروان بن محمد
في موقعة الزاب ، أمام جيوش بني العباس . . وكان ما هو معروف من مطاردة
العباسيين لبقايا خصومهم الأمويين والتنكيل بهم : فاضطر عبد الرحمن إلى
التخفي هو وأهله وولده بلحدي القرى على شط الفرات حيناً ، ثم اكتشف
العباسيون أمرة ، فأفلت من جنودهم وألقى بنفسه في النهر وعبره سباحاً حتى
نجا من ميوفهم ، ثم واصل رحلته حتى وصل إفريقية ، تهيداً لدخول الأندلس .
وفي هذه المغامرة الأولى التي أفلت فيها من قبضة مطاردة يقول عبد
الرحمن :

« وإني لجالس يوماً في قرية على شط الفرات ، في ظلمة بيت توأريت
فيه لرمد كان بي ، وابني سليمان يلعب أمامي ، إذ دخل الصبي فزعاً باكياً

فأهوى إلى حجرى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ، وبأبى إلا التعلق بى ، وهو دهش بقول مايقول الصبيان عند الفزع .

فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود (رايات العباسيين) عليها منحنطة . وأخ لى حدث السن كان معى يشتد هارباً ، ويقول لى : « النجاة ياأخى ، فهذه رايات المسودة ! » فضربت بيدي إلى دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى . وأعلمت أخواتى متجهى ، وأمرتهن أن يلحقننى مولاي بدرأ . وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً .

« ومضيت ولحقنى بدر ، فأتيت رجلا من معارفى بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لى دواب وما يصلح لسفرى ، فدل على عبد سوء كان له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا ، فسبحت حائاً لنفسى ، وسبح أخى ، فنادانا القوم من الشط : « ارجعاً لا بأس عليكما » . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخى ، فالتفت إليه لأقوى من قلبه ، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخذعونه عن نفسه ، فنادبته : « نُقتل ياأخى ، إلى - إلى » . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الفرق ، فاستعجل الانقلاب إليهم . وقطعت أنا الفرات . ثم قدموا الصبى أخى الذى صار إليهم بالأمان ، فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ، فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة . ومضيت وجهتى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عنى ، ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية ، وهناك لحق بى مولاي بدر .

وبعد نحو خمس سنوات من التخفى والسفر والتدبير والالتجاء إلى أخواله فى قبيلة نفراوه بإفريقية ، تسلل عبد الرحمن إلى الأندلس ، ونزل بإقليم البيرة .

بعد أن رست السفينة التي عبرت به من المغرب على ثغر المنكب في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ .

وجمع الموالين للأمويين ، ثم نازل بمن معه من الجند يوسف الفهري والى الأندلس حينذاك ، وخاتمة أربعة وعشرين والياً تتابعوا على حكم الأندلس في الفترة التي أعقبت الفتح الإسلامي إلى قدوم عبد الرحمن ، وهي فترة لاتكاد تبلغ نصف القرن ، مما يدل على عدم الاستقرار واحتياج الحكم الإسلامي في الأندلس إلى رجل من نوع جديد .

وقد قبض الله للأندلس هذا الرجل ، ممثلاً في عبد الرحمن الداخل ، الذي هزم يوسف الفهري ، وقضى نهائياً على عهد القلق وعدم الاستقرار وتتابع الولاة ، الذي بدأ من أعقاب إتمام فتح الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٣ هـ وانتهى بمقدم الداخل وقيامه بالأمر وتأسيسه لدولة بنى أمية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ .

وكان عبد الرحمن في الخامسة والعشرين من عمره حين تولى أمر الأندلس . وكانت أمامه مشكلات بالغة التعقيد ، تحتاج إلى خبرة سياسية وقدرة حربية وعقلية غير عادية ، لكي تنجو بالبلاد من أخطار الانقسام في الداخل ، واحتمال الغزو من الخارج ، ولكي تقيم لبني أمية في المغرب ما يعوضهم دولتهم التي فقدوها بالشرق ، وأخيراً لكي تجعل من العاصمة الأندلسية قرطبة ، مركزاً حضارياً ينافس العاصمة العباسية بغداد .

ومن هنا عمل عبد الرحمن الداخل من أول يوم في إمارته — وطيلة مدة تلك الإمارة التي بلغت ثلاثة وثلاثين عاماً — في ميادين مختلفة ، أهمها الميدان السيامي والميدان الحربي والميدان العمراني أو الحضاري .

وقد حاول في الميدان السيامي أن يوحد الأندلس ، ويقضى على بقايا

العنصرية التي عانت منها الأندلس من قبل ، حيث كانت هناك منازعات بين المسلمين الوافدين من الجزيرة العربية وإخوانهم القادمين من إفريقيا ، كما كانت هناك منافسات بين العرب العدنانيين الشماليين . وأشقاتهم القحطانيين الجنوبيين ، وكانت تلك المنازعات والمنافسات تهدد الوجود الإسلامي في الأندلس بخطر الاتهام .

وبذل عبد الرحمن الداخل في سبيل توحيد المجتمع الأندلسي جهوداً تستحق كل تقدير ، ففضى على كل من تحدته نفسه بشق عصا الوحدة ، وقاوم الزعامات القبلية التي كانت تؤجج نار العنصرية ، وأحدث توازناً في ذلك المجتمع المولد المكون أسماً من عناصر عربية ، فقلل من شأن الأرستقراطية العربية ، وضم إلى أعوانه عدداً من ذوى الأصول غير العربية .

وكان في سياسته على كثير من الصرامة والحزم والقسوة حين تقضى الضرورة حتى لقد أوقع عقوبته بعدد من الأعوان والأقربين ، فلولاه بدر ، وكبعض أبناء أمرته كل ذلك في سبيل تحقيق أهدافه وإنجاح سياسته .

أما في الميدان الحربي فقد صال وجال ، فسير الجيوش وقاد الحملات للقضاء على الفتن الداخلية . ولتأمين الأندلس من القوى الأجنبية . فقد كان بعض الحكام أو الرؤساء يطمعون في الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، أو يحاولون الكيد للأمير الأموي وخلق المتاعب له والثورة عليه . كما كان مسيحيو الدويلات الإسبانية الشمالية التي بدأ تكوينها في أعقاب الفتح الإسلامي في أطراف شبه الجزيرة الأندلسية ، يهددون دائماً حدود الأندلس الإسلامية ويمثلون خطراً يحتاج إلى قمع . ثم كان الفرنج وراء جبال البرانس . يهددون كذلك حدود الأندلس ، ويدخلون أحياناً أطرافاً في التآمر ضد أميرها .

ومن هنا كان عبد الرحمن الداخل دائم التحرك بجيشه ، مرة لإخماد حركة

عادية في داخل الأندلس بها زعيم مناوى . وتارة لتأمين حدود البلاد في الشمال من خطر جيش إسباني متحفز ، وأحياناً لرد عدوان ينذر باجتياح الأندلس على يد ملك أوربي متحرش .

وقد استطاع الداخل أن يحقق أعظم الانتصارات على كل هؤلاء الخصوم . فضفت جيوشه على كل تائر ومتمرد . وأمنت قواته حدود البلاد بإضعاف شوكة الدويلات الناشئة في الشمال لمقاومة الوجود الإسلامي في الأندلس . كذلك الحق جنوده هزيمة منكرة بجيش الإمبراطور « شرلمان » ، الذي حاول الاستيلاء على سرقسطة في الشمال الشرقي للأندلس ولكنه فشل . وفي أثناء انسحابه انقض على جيشه في ممر « رونسفال » جند عبد الرحمن الداخل فقتلوا كثيراً من جنود « شرلمان » . وكان من بينهم القائد « رولان » الشهير . وأما في الميدان العمراني والحضاري ، فقد قام الداخل بكثير من الأعمال التي تستحق الإجلال . ومن تلك الأعمال : تأسيس مسجد قرطبة الجامع ، الذي كان إنشاؤه إنشاء أول جامعة أندلسية ، بالإضافة إلى قيمته الفنية المعمارية . ومن تلك الأعمال أيضاً إنشاء ضاحية الرصافة ، التي كانت مقراً للإمارة بالشمال الغربي لقرطبة . ثم إنشاء سور للعاصمة الأندلسية قرطبة . وجلب أنواع من المزروعات المشرقية إلى الأندلس ، وتجميل المدن بكثير من العماثر والمنشآت والحدايق ومظاهر الحضارة .

وكان من أهم جهود عبد الرحمن الحضارية : استقدام عدد من المغنيات والموسيقيات المشرقيات ، وتأسيس دار لهن بالقصر الأميري ، عرفت بدار المدَنِيَّات ، لأن هؤلاء الفنانات كن من المدينة التي اشتهرت حينذاك بفنن الموسيقى والغناء .

وكان عبد الرحمن — بعد ذلك — شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره —

بصفة خاصة - يصوره بجوانبه المختلفة ، كإنسان وكسياسي وكحارب وكرجل حضارة وعمران .

من شعره الذي يصوره بإنسانيته التي تحس الاغتراب ، ونحن إلى موطن النشأة ، وتستشعر المشاركة الوجدانية مع الأشياء ، قوله عن نخلة رآها بالرصافة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة* تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غواذى المزن في المنتأى الذي يسح ويستمرى السماكين بالويل*

ومن هذا الشعر الإنساني أيضاً ، قول عبد الرحمن في حنينه إلى المشرق :

أيها الراكب الميم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسي كما تراه بأرض وفؤادى ومالكيسه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعداء علينا فعسى باقترابنا سوف يقضى

ومن شعره الذي يصور جانبه السياسى الحربى . قوله وقد حضه بعض مرافقيه مرة على صيد غرائيق وقعت إلى جانب معسكره في إحدى حملاته الحربية :

دعنى وصيد وقم الغرائق (١)
فلن همى في اصطباد المارق
في نفق إن كان أو في حالق

(١) الغرائق : جمع غرنوق وهو طائر مائى ، أو هو الكركى .

إذا التظت هواجر الطرائق
 كان لفاعى ظل بند خافق
 غنيت عن روض وقصر شامق
 بالقفر والإبطان فى السـرادق
 فقل لمن نام على النمارق
 إن العلا شدت بهم طارق
 فاركب إليها ثبج المضائق
 أولا ، فأنت أرذل الخلائق

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكمحارب ، قوله وقد بلغه أن
 بعض أعوانه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ماصار إليه
 من ملك ومجد :

لا يُلَفَ ممتنٌ علينا قائلٌ	لولاى ماملك الآنام الداخِلُ
سعدى وحزى والمهند والقنا	ومقادير بَلَعَتْ وحائل حائل
إن الملوكة مع الزمان كواكب	نجم يطالعنا ونجم آفل
والخزم كل الخزم ألا يغفلوا	أبروم تدبير البرية غافل ؟
ويقول قوم : سـعدى لا عقله	خير السعادة ما حاماها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم	بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسل إمام قائم	فالملك فيكم ثابت متأصل

وما يصور قصته فى كفاحه الطويل ، وجهاده المرير وإحسانه إلى بنى أمية
 قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله واستطال على الداخِل
 بدالة القرابة :

تَشْتَان مَنْ قَامَ ذَا امْتَعَاظٍ مَذْ قَالَ مَا قَالٍ وَاضْمَحَلَا
وَمَنْ غَدَا مُصْلِتًا لِعِزْمٍ مجرداً للعُدَّة نصلا
فَعَجَابَ قَفِصْرًا وَشَقَّ بِحِرًّا ولم يكن في الأنام كَلَا
فَشَادَ مَاكَا وَشَادَ عَزَا ومنبرا للخطاب فصلا
وَجَنَّدَ الْجُنْدَ حِينَ أَوْدَى وَمَصَّرَ الْمَصْرَ حِينَ أُخْلَى
ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ جَمِيعًا حَيْثُ انْتَأَوْا أَنْ هَلُومَ أَهْلًا
فَعَجَّأَ هَذَا طَرِيدَ جُوعٍ شَدِيدَ رُوعٍ يَخَافُ قَتْلًا
فَنَالَ أَمْنًا وَنَالَ شُبْعًا وَنَالَ مَالًا وَنَالَ أَهْلًا
أَلَمْ يَكُنْ حَقٌّ ذَا عَلَى ذَا أَعْظَمَ مَنْ مَنَعَمَ وَمَوْلَى ؟!

وإذا استعرضنا تلك النماذج التي بقيت من شعر الداخل، وجدناها في موضوعاتها الرئيسية قسمة بين الحنين والفخر. أما الحنين فصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول في المشرق. حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة. وأما الفخر فصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته وانتصاراته، فقد استطاع وهو شاب في الخامسة والعشرين أن يؤسس دولة عظيمة وأن يدخل التاريخ من أوسع الأبواب.

ومن هنا كان الداخل يتسم بالصدق. لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل بها، حتى الفخر الذي من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب قد جاء من عبد الرحمن الداخل فخرًا محتملاً، لا تثقله مبالغات أو أكاذيب، لأنه يصور حقيقة الرجل وبمعكس فعلا حوائب من سيرته.

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم — إلى جانب صدق التجارب — بفنية التعبير. وتتمثل تلك الفنية في طريقة الشاعر التي يتناول بها الموضوعات فهو حين يتحدث عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج، وإنما يتعمقها

ويعيش معها ، ويخلف عليها حياة ترتبط بحياته ، ويبت فيها عواطف تشارك عواطفه . وقدر رأينا مثلاً من ذلك في حديثه عن النخلة .

وهو في طريقته الفنية يعتمد على الوجدان في الموضوع الذى أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع فى الموضوع الذى أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد على الوجدان فى حديثه عن النخلة وفى تحيته إلى أحبائه فى المشرق . ولنتأمل أبياته فى الرد على من كان يمين عليه من أعوانه . لنرى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر . وكيف وضع مثلاً أن سبب مجده ليس هو هذا الذى يمين عليه ، وإنما هو السعد والسيوف والرمح والقدر وسنة الله فى تحول الأحوال وتداول الحكام .

ثم يمضى الشاعر فى الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك . فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ما وصل إليه — وليس العقل والتدبير — إنما هو قول باطل . يرد عليه ما كان من حاجته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة .

وأما نثر الداخل فقد حفظت لنا المصادر القديمة نماذج منه ، بعضها من لون الخطب ، وبعضها من لون الرسائل ، وبعضها من صنف المحاورات .. وتلك النماذج تقدمه لنا نائراً جيداً قوى السبك محكم العبارة مؤثراً للتركيز [شأنه فى ذلك شأن كبار النثرين فى العصر الأموى ، قبل تأثر النثر العربى بالمؤثرات الأجنبية التى عرفت فى العصر العباسى وبعده .

ومن أمثلة خطب الداخل . قوله لأصحابه يحثهم على القتال قبيل خوض : المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهرى : « هذا اليوم هو أس ما يبئى عليه . إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

ومن أمثلة رسائله . ما كتب به إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي ،
حيث قال له :

« أما بعد ، فدعني من معاريف المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ،
لتملن يدا إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين (١) بنانها
على رصف (٢) المعصية ، نكالا بما قدمت يدك . وما الله بظلام للعبيد .
ومن أمثلة محاورات الداخل . ما دار بينه وبين جندي ، حيث قال الجندي :

« يا ابن الخلائف الراشدين . والسادة الأكرمين ، إليك فررت . وبك
عذت ، من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلل المال . وكثر العيال ، وشعث
الحال ، فصير إلى ندادك المال ، وأنت وليّ الحمد والمجد . والمرجو للرفد . »

فأجابه عبد الرحمن : « سمعنا مقاتلك . وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على
دهرك . على كرهنا لسوء مقامك . فلا تعودنّ ولا سواك لثله من إراقة ماء وجهك
بتصريح المسألة والإلحاف في الطلبة . وإذا ألم بك خطب أو حزبك أمر ،
فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كيما نسترعليك خلعتك (٣) ، ونكفّ شمت
العدو عنك ، بعد رفعها إلى مالك وما لكنا — عز وجهه — بإخلاص الدعاء
وصدق النية . »

وهكذا تعددت مواهب هذا الفارس العربي ، الأمير الفنان الإنسان . حتى
انتزع إعجاب أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشرق الكبير ، على الرغم مما
كان بين العباسيين آل المنصور . والأمويين آلا الداخل ، من عداوة وصراع .
فقد قال المنصور يوما لبعض جلسائه : « أخبروني من صقر قريش من

(١) روى الشيء : جمعه وقبضه .

(٢) الرصف : الحجارة المصانة .

(٣) الخلة الحاجة والنقر .

المملوك ؟ قالوا ذلك أمير المؤمنين ، الذي راض المملوك . وسكن الزلازل ، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . . قال : ما قلتم شيئاً . قالوا : يا أمير المؤمنين من هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذي عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فمصر الأمصار وجسّد الأجناد ودون الدواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه . بحسن تدبيره . وشدة شكيته . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلالا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدُها ، وأمير المؤمنين يطلب عترته واجتماع شيعته . . وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه . مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور . وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين . . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين . »

وبعد ، فذلك بعض ملامح الداخل العقلية والعملية ، كما قدمها تاريخه في السياسة والحرب والأدب والحضارة . . أماملامحه الجسدية ، فقد ذكروا أنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، خفيف العارضين ، يوجهه خال ، وبشعره حمرة ، وكان ذا ضفيرتين . وقد فقد القدرة على الإبصار بإحدى عينيه ، ربما بسبب هذا الرمد الذي أصابه قبل ارتحاله عن المشرق .

وكان يؤثر بيبص ويعتم به . وقد نقش على خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راضى » و « بالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » .

وبعد تلك الحياة الحافلة ، توفي الأمير العظيم سنة ١٧٢ هـ . . رحمه الله وطيب ثراه . .

ابن هاني* الأندلسي

الشاعر الداعية القتيل

شاعر من كبار شعراء المغرب الإسلامي ، ولد ونشأ بالأندلس ، وعاش
 ويمات في شمال إفريقيا . رعاصر ثلاثة من الخلفاء كبار ، هم عبد الرحمن
 الناصر ، والحكيم المستنصر في الأندلس . ثم المعز لدين الله الفاطمي في شمال
 إفريقيا . كما عاصر الشاعر المشرق الكبير أبنا الطبيب ، وحاول أن يسير في
 اتجاهه الفني . حتى لقبه بعض مواطنيه « متنبى الأندلس » .

كانت الفترة التي عاش خلالها ابن هاني في الأندلس ، من أعظم
 نترات الازدهار السياسي والانتصار العسكري والتقدم الفكري وازدهار الفن لتلك
 البلاد في ظلال العهد الإسلامي . . .

كذلك كانت الفترة التي عاش خلالها ابن هاني في شمال إفريقيا من
 أكثر فترات التحرك والصراع والتفاعل في مجالات العقيدة والفكر والسياسة
 والحرب . . .

ففي تلك الفترة كانت الدولة الفاطمية تكمل بناءها وتؤكد وجودها
 وتواجه بالأسلحة المختلفة مناهضيها ، الذين كان العباسيون أهمهم في المشرق ،
 والأمويون أهمهم في الأندلس . . . على أن الصراع على الميدان الأقرب .
 كان بين حكام الأندلس الأمويين وخصومهم الفاطميين ، وذلك لتجاوز
 القطرين قبل انتقال الفاطميين إلى مصر ، ولارتباط الأندلس بشمال إفريقيا

بكثير من الوشائج منذ كان الفتح الإسلامى ، بحيث لا تحتل طبيعة الإقليمين وجود دولتين — مختلفتى المذهب والفكر والسياسة — فى حالة مواجهة . . .

ومن هنا نتصور ابن هانى وقد عاش شطري حياته الأول فى مناخ سياسى وفكرى معين . ثم أمضى شطري حياته الثانى فى مناخ آخر ، يوشك أن يخالف المناخ الأول تمام المخالفة .

وشاعرنا هو أبو الحسن محمد بن هانى الأزدي . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبى صفرة . وكان أبوه يستوطن أولاً إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد له ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٦ هـ (أوسنة ٣٢٠ على خلاف فى ذلك) .

وكان الوالد شاعراً ومشتغلاً بالأدب . فنشأ الولد — بين إشبيلية والبيرة — نشأة أدبية شعرية . ولما استوى شاعراً . اتصل بصاحب إشبيلية ونال مكانة عنده . غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر . بل كان ماحله على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان — فيما يبدو — قد تعلق بالدعوة الفاطمية ، وعُرف ذلك عنه . ولعله قد صرح بشئ من ذلك فى شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس الأموية ، لأن تلك الدعوة تمثل خطراً سياسياً يهدد هذه الحكومة . فكان فى تعلق ابن هانى بتلك الدعوة ثم فى اتصاله بحاكم إشبيلية من قبل الأمويين الأندلسيين ، خطراً لا على ابن هانى وحده . وإنما على حاكم بلده أيضاً . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هانى بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً . فهاجر إلى عُدوة المغرب .

وقد تعود المؤرخون لحياة ابن هانى أن يذكروا فى سبب هجرته إلى الشمال الإفريقى وتركه للأندلس ، أنه كان متبهما بالفلسفة كثير الانهماك فى

الملذات . وهذان السببان غير مقنعين . فالفلسفة لم تكن في أيام ابن هاني تهمّة توجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس كانوا يشتغلون بها في تلك الآونة ، التي عُرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات والاهتمام بكل العلوم .

كذلك لم يكن الانهماك في الملذات مما يسبب إخراج أندلسي من بلده ، فقد كان حبُّ الشراب والسماع والإقبال على المتع واللهو ، مما يشيع بين الأندلسيين في أكثر الأحيان . ولم يكن ابن هاني بدعا بين مواطنيه في ميله إلى الملذات ، ولا في الانهماك فيها .

لهذا كله برحّح أن تكون هجرته لسبب سياسي ، وهو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة — كما يدل على ذلك شعره — مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هاني من الأندلس (١)

ومهما يكن من أمر ، فقد اتصل ابن هاني في شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلي ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على أشعار قالها فيهم . . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمي . فطلب أن يراه ، فتوجه ابن هاني إلى لقائه ، وكانت له فيه ، أشعار قوبلت بالتقدير والإنعام .

وظل ابن هاني شاعر المعز المفضل ، وداعية دولته الأثير . . ولما توجه المعز إلى مصر شيعة ابن هاني ، ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله والحقاق بالخليفة . وفعلاً استعد الشاعر وتبع المعز . ولكنه لم يلحق به . وذلك أنه حين وصل إلى برقة انتهت حياته نهاية غامضة ، فقيل : « إن شخصاً من أهلها استضافه ،

(١) انظر : تبين المعاني في شرح ديوان « ابن هاني » للدكتور زاهد على صفحة ٢٠ .

فأقام عنده أياماً، ثم كانت عربة عليه في مجلس أنس سببت موته . وقيل :
 « إنه خرج سكران من دار مضيفه فنام في الطريق وأصبح ميتاً » . وقيل :
 « إنه وجد في ساقه من سواق برقة مخنوقاً بتكة سرابله » . . وأغلب الظن
 أن ابن هانيء قد قتل قتلاً سياسياً على يد بعض أنصار حكومة الأمويين
 الأندلسيين المناهضين للفاطميين (١) .

وليس أدل على ذلك من هذا الغموض الشديد الذي يكتنف ميتة ابن
 هانيء أو قتله . .

وعلى أية حال ، قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن بلغ من
 العمر ستاً وثلاثين سنة (أو اثنتين وأربعين على خلاف في ذلك) .

هذا ، وقد كان في طبع ابن هانيء كثير من الحدة ، وفي عقيدته كثير
 من القلق ، وفي سلوكه كثير من الاستهتار .

أما شعره : فقد كان يسير في الاتجاه المحافظ الجديد ، الذي كان على
 رأسه بالمشرق في تلك الفترة أبو الطيب المتنبي . . وكان ابن هانيء قد عرّف
 من قبل شعر البحرى وأبى تمام ، كما درس بعناية شعر أبى الطيب وتعلق بمذهبه .
 ثم كانت موهبته الخاصة وملكته المميزة ، فكان اختباره للاتجاه المحافظ الجديد
 أولاً ، ثم كان تميزه بسمات خاصة ثانياً .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هانيء شعراً يحول فيه اللون الخاص . أو يعتمد
 فقط على الشاعرية التي تعدّها القراءة ويعينها الاطلاع لكي تنتج نابعاً كالذي
 قرىء . وإنما كان لشعر ابن هانيء هذا اللون المميز والطابع الخاص ، الذي
 لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون كالذي ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة .

(١) انظر : تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء للدكتور زاهد على صفحة ٢٢ .

لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر ، فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التي تميز شعر ابن هانيء — برغم سيره في اتجاه المتنبي وسابقه من المحافظين المجددين — فيمكن تركيزها في سمتين اثنتين ، هما : الحدة الفنية ، ثم المذهبية . والسمة الأولى ، وهي سمة الحدة ، تتضح في شعر ابن هانيء ، وتتمثل في مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد في فنه الشعري ، صارخ في لونه الأدبي ، وحدته تبدو في معانية وصوره ، وفي ألفاظه وتعاييره ، بل في أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار فيلاحظ أن ابن هانيء يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها . ولا يهيمه بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ، فهو يقول مثلاً في سيفه :

لى صارم وهو شيعى كحاملة يكاد يسبق كثرأتى إلى البطل
إذا المعز — معز الدين — سلطه لم يرتقب بالمانايا مدة الأجل

وهذه حدة مقبولة ، بل جميلة ، لأن الشاعر خفف منها في البيت الأول بقوله عن سيفه « يكاد » ، ثم بتلك الصورة الفنية التي تصور السيف يسابق صاحبه إلى العدو . كما خفف منها في البيت الثاني أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضى على العدو يبدو شيئاً مقبولاً بل جميلاً .

لكن ابن هانيء أحياناً يصل في حدته المتصلة بالأفكار إلى درجاً لا يستسيغها العقل ، وقد يمجها الذوق . ومن ذلك قوله في كرم بعض ممدوحيه :

من كان أول نطقه في مهده أن قال : أهلاً ، للعفاة ومرحبا

وقوله في أهمية آخر :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياءُ

ثم قوله المعروف في المعز :

ماشت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهار

وليس من شك في أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً في الفكرة ،
أو حرارة في الإحساس . أما حين تكون مبالغة متورمة ، يرفضها الذوق ، أو
العقل ، فإنها تأتى ساقطة ليس لما حظ من السمو الفنى . . وقد تورط ابن
هاني في بعض هذه الأفكار غير الناحجة نتيجة لحده التي كان لا يستطيع
السيطرة عليها أحياناً . .

وابن هاني حاد كذلك في صوره الشعرية ، فهو يوسع رقعتها ، ويبرز
خطوطها ، ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم
هادئة ، ولا يهمه أأتت الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلاً في تصوير
أكل :

بالت شعري إذا أوما إلى	أحلقه لهوات أم ميادينُ
كأنها وخبث الزاد بضرهما	جهنم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته	كأنما كل فك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مخزن	مما أعدته للرسل الفراعين
كأنما الحمل المشوى في يده	ذوالنون في الماء لما عَصَّه النون (١)

(١) النون : هو الحوت ، وذو النون هو سيدنا يونس الذي ابتلته الحوت .

كأن في فكه أيتام أرملة أو باقيات عليهن التباين (٢)

وهذا من جميل التصوير ، لأن المقام يحتمل المبالغة ، فهو مقام سخرية يصلح لها هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . . غير أن ابن هاني في مقام آخر يصل في حدته التصويرية إلى درجة تفسد الصورة . ومن ذلك قوله يصف وجهها بجميلاً ، ويتحدث عن الخد وما يجاوره من شعر يسمى العذار :

وكأن صفحة خده وعذاره تفاحة رُميت لتقتل عقرباً

فهنا قد أدت المبالغة - أو الحدة - في الصورة إلى ما يبعث على النفرة ، حيث جعل الشاعر خد الجميل تفاحة وجعل شعر العذار عقرباً ، وصور التفاحة وقد قذف بها العقرب ، وكأنه ليس عقرب شعر ، وإنما هو عقرب حقيقى من تلك الحشرات المخيفة الكريهة ، مآدام الأمر محتاجاً إلى الرمى والقذف والرجم .

وابن هاني كذلك حاد في ألفاظه وعباراته ، فهو يؤثرها فحمة ذات جرس عال ورنين واضح ، وهو في كثير من الأحيان موفق في ذلك ، كأن يكون المقام محتاجاً لعلو النبر وارتفاع الإيقاع ، مثل قوله من قصيدة في جيش المعز :

رأيتُ بعينى فوق ما كنت اسمعُ	وقد راعنى يوم من الحشر أروعُ
غداة كأن الأفق سُدَّ بمثله	فعاد غروب الشمس من حديث تطلع
فلم أدْرِ إذْ سلمتُ كيف أشيع	ولم أدْرِ إذْ شيعتُ كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة	وإني بمن قاد الجيوش لمولع
وأين ؟ وما لي بين ذا الجيش مسلك	ولا لجوادي في البسيطة موضع

(٢) التباين : جمع تبان ، وهو السروال الصغير (المايوه) .

ألا إن هذا حشد من لم يدُقْ له غرار الكرى جفن ولا بات يجمع

على أنه في أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين العالى إلى الصخب والقعقة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله في حسناء أراد أن يصف كثرة حليها :

أصاحت فقالت : وَفَعُ أَجْرَدَ شَيْظَمٍ وشامت فقالت : لَمَعَ أبيضُ مُخَدَّمٍ (١)
وما ذُعِرْتُ إلا بجرس حليها وما لمحت إلا بُرَى في مُخَدَّمٍ (٢)

وقد عيب على ابن هانيء هذا اللون من الحدة في الألفاظ والتعابير . وهو عيب من غير شك إذا جاء في غير موضعه . . ومن الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عاماً في شعر ابن هانيء ، ولا في أكثره ، حتى يحكم به على فنه جملة . . ومن هنا كان أبو العلاء المعري غير دقيق الحكم ، حين اعتبر شعر ابن هانيء شيئاً لا طائل تحته ، وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً » فالحق أولاً أن أكثر شعر ابن هانيء لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والجلبة والقعقة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة وإلى العبارة الجزلة . وهذا لون من التعبير ومذهب من مذاهب الأداء ، فكما يحب البعض الخمس والمهدوء في الأداء ، يؤثر البعض الآخر الجهر وعلو النبرة في التعبير .

والحق ثانياً أن حب أبي العلاء الشديد للمتبى وشعره ، هو الذى جعله يهجن من شعر ابن هانيء الأندلسى ، الذى كان كثير من مواطنيه يثأرونه

(١) أصاحت : أصغت : والشَيْظَم من الخيل : الطويل الجسم ، وشامت : سطلعت .
والمُخَدَّم : السيف القاطع .

(٢) البرى : الخلاخل . المخدّم : موضع الخلخال .

بأبي الطيب ويعتبرونه منافساً له . وإلا فكيف يصدق حكم أبي العلاء على مثل
قول شاعرنا :

فَتَكَاتُ طَرَفَكَ أَمْ سَيُوفُ أَبِيكَ وَكَئُوسُ خَمْرٍ أَمْ مَرَاشِفُ فَيْكَ ؟
أَجْلَادُ مَرْهَفَةٍ وَفَتَاكُ مُحَاجِرٍ ! مَا أَنْتَ رَاحَةً وَلَا أَهْلُوكَ !
يَابَسَتْ ذِي الْيَرْدِ الطَّوِيلِ نَجَادُهُ أَكْذَابُ يَكُونُ الْحُكْمُ فِي نَادِيكَ ؟
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَالَكَ طَارِقًا حَتَّى دَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
عَيْنَاكَ أَمْ مَغْنَاكَ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكَرَى أَلْقَاكَ أَمْ وَادِيكَ
مَنْعُوكَ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوْا فُلُو عَثَرُوا بِطَيْفِ طَارِقِ ظَنُّوكَ !
وَدَعُوكَ نَشْوَى مَاسِقُوكَ مَدَامَةً لَمَّا تَمَازَلِ عَظْفُكَ أَتَهْمُوكَ

وابن هانيء كذلك حاد في موسيقى شعره ، فهو يختار قصائده من البحور
الكثيرة التفاعيل العالية النغم الجلية الموسيقى . ثم هو يؤثر القوافي الرنانة ، ويصل
أحيانا إلى اختيار روى غريب لم يؤلف من قبله . بل نستطيع أن نقول : إنه
حاد في كم أبيات قصائده ، فهو أميل إلى القصائد ، وإلى المطولات بصفة
خاصة . .

هذه هي السمة الأولى من سمته البارزتين ، وهي سمة الحدة . أما السمة
الثانية ، وهي المذهبية . فتبدو في كون ابن هانيء شاعراً مذهبياً لا يؤمن بالفن
لذاته ، وإنما يوظفه لتدعيم مذهب يميل إليه ويدعوه . فابن هانيء قد اتصل
بالحركة الشيعية وهو في الأندلس ، وكانت السبب في خروجه من بلده وهجرته إلى
شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالاً مباشراً بعد هجرته ،
وعمل للدعوة الفاطمية ، فكان من ألسنتها الناطقة ومن دعائها أصحاب
الصوت الجهوري . ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الشيعة وأفكارهم ،
وبدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه كثيراً على

الحجاج والجدل والتعليل ، في محاولة للإقناع ، شأن أصحاب المذاهب .. وربما لا تخلو قصيدة من قصائده الكثيرة في المعز من أمثلة على ذلك . فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :

إمامٌ عدلٌ وفقى في كل ناحية كما قضوا في الإمام العدل واشتروا

ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

مؤيدٌ باختيار الله بصحبه وليس فيما أراه الله من خلل

ويقول في فكرة ميراث آل البيت للحكم :

هو الوارث الأرض عن والدين أبٍ مصطفى وأبٍ مرتضى

ومثل هذه الأفكار الشيعية كثير في شعر ابن هاني ، قد استخرجها العلماء الذين عنوا بهذه الناحية في تراثه ، مثل الدكتور زاهد على ، الذي شرح ديوان ابن هاني وحققه وقدم له (١) .

ولما كان ابن هاني متفقاً مع المتنبى في حدة الطبع ، وفي الأخذ بمذهبه في الفن الشعري ، ولما كان معجباً به ودارساً له أيضاً ، فقد وجد في تراثه بعض آثار المتنبى ، حتى عيب ذلك عليه وعد من المأخذ التي وجهت إليه . ومن ذلك مثلاً قول ابن هاني :

ألم يُبدِ سر الحب أن من الضنا رقيباً وإن لم يهتك السر هاتك ؟

فإن هذا المعنى قد سبق إليه المتنبى حين قال :

وإذا خامر الهوى قلباً صب فعليه لكل عين دليل

(١) سمي الدكتور زاهد على عمله باسم « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني » .

ومنه أيضاً قول ابن هاني :

إنَّ ذلَّ العزيز أقطع مرأى بين عينيه من لقاء الختوفِ

فهذا المعنى أيضاً قد سبق به المتنبي حين قال :

غير أن الفنى يلاقى المنايا كالحاتٍ ولا يلاقى الهوانا

غير أن ذلك وماسبق من مآخذ، لا يغض من قيمة ابن هاني ، ولا يزحزحه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ، فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوي والعبارة المحكمة والصورة الباهرة والموسيقى الرنانة . مع طول نفس ووفرة إنتاج .

ابن درّاج

« شاعر العاطفة الأسرية والأصالة الأندلسية »

١ - اسمه :

الاسم الكامل لهذا الشاعر هو : أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن عيسى بن دراج . وكنيته أبو عمر ، ولقبه القسطلّي ، نسبة إلى بلده قسطة . وقد اشتهر باسم : « ابن دراج القسطلّي » وكثيراً ما يقال له : « القسطلّي » دون ذكر أي اسم آخر .

أما « قسطلّة » التي يُنسب إليها الشاعر ، والتي غلب اسمها عليه حتى اشتهر به فهي عند أكثر الباحثين قرية بغرب الأندلس ، تدخل اليوم في حدود البرتغال ، وتسمى الآن « Cacella » وتقع على ساحل المحيط الأطلسي بين الحدود الإسبانية ومدينة « "Tavira" » . وهؤلاء الباحثون قد اعتمدوا على مقالته الجغرافي القديم عبد المصمّم الحميري في كتابه « الروض الممطر » وعلى ما ذكره الإدريسي في كتابه « نزهة المشاق » ، حيث أفرد الأول مادة « لقسطلّة دراج » وقال : إنها قرية في غرب الأندلس . كما أشار إليها الثاني بما يفيد أنها من قرى الغرب كذلك .

على أن بعض الباحثين يرى أن قسطلّة التي ينسب إليها شاعرنا إنما هي قرية منتمية إلى ما كان يسمى : موسطة الأندلس ، تقع قرب مدينة جيّان . ويرجح محقق ديوان ابن دراج ، وهو الزميل الدكتور محمود مكّي أنها الآن البلدة الصغيرة التي من أعمال « "Andujar" » . وتبعد بنحو عشرين ميلاً إلى شمال جيّان ، واسم هذه القرية الآن هو : « "Cazalilla" » .

• القى هذا البحث بحاضرة عامة في المعهد الإسباني العربي بمدريد يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٦ .

وأنا أرجح أن قسطة التي ينسب إليها شاعرنا إنما هي « Santisteban Castellar de » التي هي من إقليم جيان أيضاً ، والتي تقع في الشمال الشرقى منها . . . وسبب هذا الترجيح عندي هو أن أقرب الأسماء إلى الاسم العربى القديم هو اسم "Castellar" ، فهو الاسم الوحيد من بين الأسماء الواردة . الذى يحوى كل حروف الاسم فى شكله العربى ، وإن كانت هذه الحروف قد جاءت بشكلها الإشباني . فإذا فحمنّا الصوت الذى يحتاج إلى تفخيم . وتركنا الإمالة ، ونطقنا اللامين على عادة النطق العربى قلنا فى . . . Castellar قَسْطَلَرَّ ، ولم يبق إلا الحرف الأخير وهو الراء - أو ال "R" - التى يختم بها الاسم فى شكله الإشباني ، والذى يمكن أن يكون قد لحق باسم قسطة لسبب ما ، أو أن يكون من جملة الاسم قبل النطق العربى . وقد أغنله هذا النطق لسبب ما . ومهما يكن من أمر فالقول بأن اسم قسطة هو أقرب الأسماء إلى Castell مما لا يحتاج إلى مزيد عناء للتدليل عليه ، فهو من غير شك أقرب من 'Caceilla' ومن "Cazalilla" :

والفضل فى توجيه القائلين بأن قسطة التى منها شاعرنا إنما هى قسطة إقليم جيان ، يرجع إلى ابن سعيد المغربى صاحب « المغرب » و « رايات المرزقين » ، اللذين أوضح فيهما هذه الحقيقة . . . ومعروف أن ابن سعيد أعرف بهذا الإقليم من سواه لأنه منه ، ثم لأنه عرّف وعرف بمواطن ثلاثة . يسمى كل منهما باسم قسطة . على حين لم يعرف من قالوا قديماً بأنها قرية فى الغرب . إلا تلك القرية التى هى فى الغرب . . . أما ابن سعيد فذكر قسطة الغرب مثلهم . ثم ذكر قسطة التى هى من إقليم جيان ، كما ذكر ثلاثة وهى قرية قرب الجزيرة الخضراء ، ينسب إليها شاعر « غير شاعرنا هو : يونس بن محمد القسطلى » .

٢ - عصره :

وعصر هذا الشاعر يمتد من سنة ٣٤٧ هـ إلى سنة ٤٢١ هـ (٩٥٨ م إلى ١٠٣٠ م) أى من أواخر سنوات عبد الرحمن الناصر إلى أوائل سنوات عصر

الطوائف ، مروراً بعهد الحكم المستنصر ، ثم بعهد المنصورين أبي عامر وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن ، ثم بفترة « الفتنة المبيدة » التي أملت بالأندلس وجعلتها مسرحاً لصراع مرير على السلطة ، بين الأمويين وأنصارهم ، والعامريين ومواليهم ، والبربر وأعوانهم ، إلى أن انتهى الأمر بسقوط الخلافة وتقسّم الأندلس بين ملوك الطوائف .

وقد كان لكل حقبة من تلك الحقب أثره في حياة ابن دراج وفي أدبه ، فمولده ونشأته كانا في فترة ازدهار الخلافة الأموية ، أيام الناصر والمستنصر ، حيث ازدهار الثقافة الأندلسية ووصول حضارة الأندلس إلى الذروة .. أما ولوج عالم الشعر وتألقه فيه فقد كان في فترة الحجابة ، أيام المنصورين أبي عامر ، الذي حمى الخليفة الصغير هشاماً الثاني ، وأصبح الحاكم الفعلي للأندلس ، والذي اشتهر بتقريب الشعراء وتشجيعهم على تجويد الشعر ، حتى لقد أنشأ لهم ديواناً خاصاً تجرى فيه الأرزاق والرواتب عليهم حسب أقدارهم .. وأما معاناة شاعرنا وتمرسه بتجارب الحياة المريرة ، فقد كانت في فترة الفتنة ، حيث كان القلق والفزع والاضطرار إلى الارتحال ، بحثاً عن الأمن وطلباً للحماية ، بل جرياً وراء ما يفي بضرورات الأهل وواجبات الأسرة . . . وأما اكتمال نضج شاعرنا واستواء خصائصه وبلوغه الذروة ، فقد كان فيما أدرك من عصر الطوائف ، حيث وجد من جديد بعض الحكام المقربين للشعراء والمشجعين لتجويد الشعر . وفيما يلي تفصيل لهذا الأجمال :

٣ - مولد الشاعر ونشأته :

ولد ابن دراج سنة ٤٣٧ هـ (٩٥٨) في بيت ذي مكانة من بيوث فسطلة ، هذه البلدة القريبة من جيان ، والتي نسبت إلى الجلد الأعلى للشاعر ، ف قيل لها « فسطلة دراج » ، كما كان هذا الجلد وبنوه الذين ينتمى إليهم شاعرنا

يتداولون رياسة هذه البلدة، كما يدلنا على ذلك ابن سعيد في كتابه « المغرب » .
 وأسرة ابن دراج ذات أصول بربرية قديمة تنتمي إلى صنهاجة، وكانت -
 فيما يبدو- ضمن البربر الذين دخلوا الأندلس في جملة من دخلوا مع طارق بن
 زياد سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) . ثم اندمجت هذه الأسرة البربرية الأصل في
 البيئة الأندلسية متحدة مع العناصر البشرية الأخرى التي كونت المجتمع الأندلسي ،
 حتى أصبحت آخر الأمر أندلسية تماماً ، ولا يكاد يربطها بأصلها البربري إلا
 هذا النسب المحفوظ ، شأنها في ذلك شأن كل العناصر البربرية التي دخلت
 الأندلس في تاريخ مبكر ولذا لا نرى في شعر ابن دراج ما يشير إلى أصله
 البربري ، بل على العكس من ذلك نراه يهاجم بعض زعماء البربر . على حين
 يشيد في شعره بخصوصهم . . وفي الحالات الاستثنائية التي يتجه فيها إلى بعض
 الحكام ذوي الأصول البربرية مثل بنى حمود ، لانجد في شعره مايوحى بأى
 انتماء إليهم أو التفات لأصلهم ، فكل مدحه لهم مدح عام كالذى يقال عن
 أى قواد أو أى ساسة . . ولهذا كله يعتبر ابن دراج منذ البداية أندلسياً ،
 وحق لابن حزم والشقندي أن يفاخرا به كأندلسي ، وأن يلزما أهل المغرب
 الحجة في أن بلادهم لم تنجب شاعراً في مثل نبوغه . هذا مع علم المفكرين
 بابن دراج . بأصوله الصنهاجية القديمة ، لانهما يدركان أن آثار هذه الأصول
 قد ثلاثت أخيراً من شخصية الشاعر ، وأصبح أندلسياً تماماً بل أصبح من
 أكبر مفاخر الأندلسيين حتى على المغاربة أنفسهم .

ولا يُعرف شيء محدد عن نشأة ابن دراج الأولى ، إذ لم يتعرض لها من
 ترجعوا له قديماً من الأندلسيين والمشارقة. غير أننا نستطيع أن نستنتج من شعره
 وما نعرف من منزلة أسرته وطبيعة فترة نشأته، أنه نشأ نشأة أقرب إلى الكفاية والرغد
 والرفعة ، وتزود منذ البداية بثقافة أدبية ولغوية وتاريخية موفورة ، وأنه اهتم بنوع
 خاص بأشعار الجاهليين والإسلاميين ، وفتن بنوع أخص بالشعر المحافظ الجديد

الذى وصل إلى قمته في القرن الرابع الهجري ، حيث انتهت زعامته في المشرق إلى الشاعر الجهمير أبي الطيب المتنبي ، وفي المغرب إلى الشاعر المجاجل ابن هاني الأندلسي . . ومن المؤكد أن ابن دراج قد أطلال النظر في شعر هذين الشاعرين الكبيرين . . وقد ساعد على هذا التصور ما نعرف من منزلة أسرته التي سميت المدة باسم كبيرها دراج ، ثم ما نراه من آثار تلك الثقافة الأدبية واللغوية والتاريخية في شعر ابن دراج ، وما نعلمه من ازدهار الدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية بالأندلس في فترة التكوين الثقافي له . ومن الاهتمام بأشعار الجاهليين والإسلاميين والإقبال الشديد على الاتجاه الشعري المحافظ الجديد في تلك الفترة . . فنحن نعرف أن فترة التكوين الثقافي لشاعرنا ، هي الفترة التي جنت ثمار قدوم أبي على القالى على الأندلس ونقله إليها مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء المشارقة الجاهليين والإسلاميين ، بالإضافة إلى كثير من كتب اللغة والأخبار . . كذلك نعرف أن فترة التكوين الثقافي لشاعرنا هي الفترة التي هضمت وتمثلت آثار أبي تمام والبحرئى التي أدخلها بعض نقلة آداب المشرق مثل أبي اليسر الرياضى . . كذلك نعرف أن ديوان المتنبي دخل الأندلس على عهد الخلافة وكان من عمدة الثقافة الشعرية في فترة تكوين شاعرنا . وكان قد أدخل هذا الديوان إلى الأندلس زكريا ابن الأشج . . هذا من ناحية المؤشرات المعينة على التصور الثقافي الأدبي لشاعرنا خلال فترة تكوينه . . أما المؤشرات التي يمكن أن تعين على التصور الثقافي اللغوي والتاريخي فحسبنا أن نذكر منها أن فترة الخلافة التي كانت فترة تثقف الشاعر قد شهدت تألق عالم لغوي كالزبيدي ، وعرفت مؤرخين كالرازي وابن القوطية وابن عبد البر والحشنى . . ولا يمكن أن نغفل ما كان لحيان - التي تتبعها بلدة الشاعر - من مكانة في عالم الأدب ، فهي بلد الشاعر يحيى الغزال الذي تألق قبل فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الأوسط . وهي بلد ابن فرج صاحب كتاب « الحدايق » الذي

ألفه للحكم المستنصر وعارض به كتاب « الزهرة » للأصبهاني ابن داود .
وهكذا نستطيع أن نتصور ابن دراج قد تثقف في إقليم جيان ، وفي تلك
البيئة الأدبية الحصبة . وأفاد من معطيات عصره وبيئته المزدهرة بالأدب واللغة
والتاريخ ، والمتفلة في المجال الشعري بالاتجاه المحافظ الجديد .

كما نستطيع أن نتصور أن موهبة الشاعر قد تفتحت وهو في تلك المرحلة ،
وأنه مارس قرض الشعر ، حتى أحس بالتمكن من فنه . وهنا تطلعت آماله إلى
العاصمة قرطبة . التي كان صاحب السلطان فيها وفي الأندلس جميعاً هو
المنصور ابن أبي عامر ، الحاجب المشهور ، الذي كان معروفًا بتقريبه للشعراء ،
وانشائه ديواناً لهم ، واتخاذهم السنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أمجاده والإشادة
بانتصاراته .

٤ - اتصاله بالعاهرين ثم نألقه في فترة الحجابة :

وأول ما يذكره المؤرخون من أخبار حياة ابن دراج صاته بالمنصور ،
وقدومه على قرطبة ليبدأ بها عهد التألق سنة ١٨٢ ، وله من العمر ٣٥ سنة . .
وقد استطاع هذا الشاعر أن يلقى الحاجب ، وأن ينشده قصيدة هائية بدأها
بالغزل قائلاً :

أضاء لها فجراً انتهى فنّها ما عن الدّ نغف المضى بحراً هواها
وضللها صبحاً جلا ليلة الدجى وقد كان يهديها إلى دجاها

وبعد الغزل التمهيدى . ووصف الرحلة إلى الممدوح . وفراق الأهل من
أجله ، انتقل إلى الغرض الأساسي وهو مدح المنصور الذي قال فيه :

فحطت بمعنى الجود والمجد رحلتها وألقت بربع المكرمات عصاها
لدى ملك إحدى لواحظ طرفه بعين الرضا حسب المني وكفاها

حَسْبِي رِضَاكَ مِنَ الدَّهْرِ الَّذِي عَتَبَا وَعُطِفُ نَعْمَاكَ لِلْحَظِّ الَّذِي انْقَلَبَا
هُوَ الْحَاجِبُ الْمَنْصُورُ وَالْمَلِكُ الَّذِي سَعَى فَتَعَالَى جَدُّهُ فَتَنَاهِي
سَبِيلُ الْمَلُوكِ الصَّيْدِ مِنْ سَرَوْ حَمِير تَرَسَّطَ فِي الْأَحْسَابِ سَمَكُ ذَرَاهَا
لُبَابُ مَعَالِيهَا وَإِنْسَانُ عَيْنِهَا وَبَدُرُ دِيَاغِيهَا وَشَمْسُ ضُحَاهَا
مَعْظَمُهَا مَنْصُورُهَا وَجَوَادُهَا وَفَارِسُهَا يَوْمَ الْوَعَى وَفَتَاهَا
وَوَارِثُ مَلِكِ أَثَلَتَهُ مَلُوكُهَا وَجَامِعُ شَمْلِي مَجْدِهَا وَعُلاهَا
نَمَاهُ لِقَوْدِ الْحَلِيلِ « تَبَعَ » فَخَرَهَا وَأَوْرَثَهُ سَبِيَّ الْمَلُوكِ « سَبَاهَا »
ذُووُ الْمَلِكِ وَالتَّيْجَانِ وَالْغَرْرِ الَّتِي جَدِيرُ يَهَا التَّيْجَانُ أَنْ تَتَبَاهِي

وقد كان وصول ابن دراج إلى مجلس المنصور ، وإنشاده إياه هذه القصيدة مبعث حسد له ومثار تشكيك فيه وتآمر عليه . فقد خاف كثيرون من حول المنصور من شعراء وأدباء ، أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطة على مكانتهم ، واستكثروا عليه أن يشاركهم منزلتهم في ديوان الشعراء ، ومن هنا اتهموه بالسرقعة الشعرية وانتحال شعر غيره ، ولغظوا بذلك عند المنصور . وكان من نتائج ذلك أن استحضره المنصور ليختبره — على طريقتة إذ ذاك حين كان يشك في عالم أو أديب — واقترح عليه بعض الموضوعات ، وطلب إليه أن يقول فيها شعراً ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه . وبهذا زالت تهمة السرقعة وسقط ادعاء الانتحال . ووصله المنصور بمائة دينار ، وأثبتته في جملة شعرائه وأجرى عليه الرزق .

ولم يفت الشاعر الذكي أن يؤكد شاعريته بما هو أكثر من ذلك . ليقتضى قضاء تاماً على مزاعم الحاسدين ، وليثبت تفوقه بين الشعراء أجمعين ، وكأنه كان يحس أن ماسيقوله ارتجالاً ، سيأتى دون الدرجة الفنية التي يحب أن يعرف بها . ولذا كان قد أعد لهذا اللقاء قصيدة جديدة ، أنشدها للمنصور بعد أن اجتاز الامتحان العسير . وفي هذه القصيدة البائية يقول :

يا مالكا أصبحت كفى وما ملكت ومهجتى وحياتى بعض ماوها

ثم يمضى فى هذه النجوى إلى أن ينتقل إلى ذكر محنة الاتهام الباطل فيقول :

ودَسَّسُوا لى فى مَشْنَى حباثلهم شنعاءَ بِتُ بها حرَّانَ مكتنبا
حتى هزرتَ ، فلا زلَّ القريض كبا فيما لدى ولا سيف البديه نبا
وأشرقَتْ شاهداتُ الحق تنشرِ لى نوراً غدتْ فيه أقوال الوشاها
هيئات أعجزَ أهلَ الأرض أن يجدوا للدر غيرَ عُبابِ البحرِ متسبا
وحاش للوردِ أن يُعزِّزى إلى رمضٍ وأن يكون له غيرُ الربيع أبى

إلى أن يقول فى قدم الحاسدين لكبار الشعراء ، وفى بيان تنوع قدراته الأدبية :

ولستُ أولَ منْ أعيتْ بدائعهُ فاستدعت القولَ من ظنِّ أوحبا
إن امرأ القيس فى بعضِ لَمَّتْهُمُ وفى بديه لواءُ الشعرِ « إن ركبا »
والشعر قد أسر الأعشى وقيده دهرًا ، وقد قيل : « والأعشى إذا شربا
وكيف أظما - وبحرى زاخر قطناً إلى خيال من الضَّحَضاح قد نضبا
فإن نأى الشكُّ عني ، أوفها أنذا مَهَيَّأً لجلَى الخير مرتقبا
عبدٌ لنعمائك فى كفيه فجرٌ هدى سارٍ لمدحك يجلو الشك والربا
إن شئت أُملى بديع الشعر أو كتبها أو شئت خاطب بالمشور أو خطبها
كروضة الخزنِ ، أهدى الوشى منظرُها والماءَ والزهرَ والأنوارَ والعُشْبَا أسرَ

وهكذا تأكدت منزلة الشاعر فى بلاط المنصور ، فلم يكن فى ديوان الشعراء فحسب ، بل مالبت أن ضمَّ إلى ديوان الإنشاء ، لتمكنه من صناعة النثر إلى تمكته من صناعة الشعر . . ومازال ابن دراج يصعد حتى أصبح من كبار شعراء المنصور ، إن لم يكن أكبرهم أجمعين « وظل يعمل فى خدمته شاعراً يسجل الانتصارات ، ويصور كبار الأحداث ، وناثراً يجيد

ما يطلب إليه تحريره في ديوان الإنشاء ، بل كان يصاحبه في بعض غزواته ليعايش تجارب النصر على الطبيعة ، وليصور المعارك من واقع الميدان . ومن هنا توثقت العلاقة بينه وبين أميره ، وأصبحت تتجاوز علاقة شاعر مؤمل في ممدوح كريم ، بل صارت علاقة أساسها الإعجاب الملهم والتقدير الموثوق . حتى لقد حفظ لنا ديوان ابن دراج اثنين وثلاثين عملاً شعرياً في المنصور ، ما بين قصيدة وقطعة ، وحتى لزم ابن دراج أميره إلى آخر حياة هذا الأمير الذي توفي سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) .

وبعد موت المنصور استمر ابن دراج يعمل في خدمة الحاجب الجديد عبد الملك بن أبي عامر المقاب بالمظفر ، وظل يسجل انصاراته ويصور كبار الأحداث في عهده ، إلى أن مات هذا الحاجب وخلفه أخوه عبد الرحمن ، فقال شاعرنا قصيدة يرثي بها الحاجب الراحل ويعزى الحاجب الجديد ويهنئه بالولاية . . ثم تنقطع صلاة الشاعر — أويستك شعره — عن العامريين . لأن هذا الحاجب الجديد يرتكب حماقة محاولة أخذ البيعة له ، ليكون خليفة لـ حاجباً ، وتقوم الثورة ضده في قرطبة ، ويبدأ بذلك عهد الفتنة المبيرة . التي يعاني ابن دراج بعض متاعبها في قرطبة ثم يضطر معها إلى مغادرة العاصمة الأندلسية ، والبحث عن الأمن والحمل وما يعول الأسرة . وبهذا تبدأ مرحلة جديدة من حياة ابن دراج ، هي : مرحلة الارتحال والتنقل والضياع ، بعد استقرار في ظل العامريين دام نحو ١٧ سنة (من ٣٨٢ هـ إلى ٣٩٩) .

٥- في محنة الفتنة :

قصد ابن دراج أول عهد الفتنة أن يرتبط بالثائر الأموي الذي أسقط الحاجب العامري الطامع ، فقال قصيدة في محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي يدوأنها لم تفده . وهي القصيدة الوحيدة التي قالها في هذا الأمر والتي مطلعها :

قل للخلافة قد بلغت منك ورأيت ماقرت به عيناك
إلى أن يقول :

وأنا الشريد وظل عرك موثلي وأنا الأسير وفي يدك فكاكي
أدب أضاء المشرقين وتحت حط بين إليك أنفة سالك

وحين يقتل هذا الأموي الثائر ، ويستولى على الأمر أموي آخر هو سليمان
ابن الحكم الملقب بالمستعين ، توجه إليه الشاعر قاصدا الارتباط به ، ويحفظ
لنا ديوان شاعرنا ثلاث قصائد في هذا الخليفة الأموي الجديد . كما يحفظ لنا
كذلك قطعة شعرية وجهها إليه معبراً عن شكواه ومعاناته ، بحيث نستطيع
أن نتأكد أن قصائده المدحية التمجيدية في هذا الخليفة لم تحقق أمله فيه .

ونحت ضغط الظروف بإجاء ابن دراج إلى الحثوديين ، فيمدح أولاً
القاسم بن حمود ، الذي كان وزيراً للخليفة المستعين على قرطبة ، وبشكواه وأصابه
هو وأسرتة من ضر ، ولكن يبدو أنه لم يحقق أملاً كذلك لدى القاسم . فترك
قرطبة لأول مرة متجهاً إلى سبتة حيث على بن حمود أخو القاسم ، وفي سبتة
أنشد عليها حاكها قصيدة من أشهر قصائده . ولكن حظه لدى على
في سبتة ، لم يكن بأوفر من حظه مع القاسم في قرطبة . ولذا عاد إلى الأندلس ،
وأخذ يتنقل بين الحكام الذين كانوا من قواد بني عامر ورجالهم ومواليهم ،
والذين انتهزوا فرصة الفتنة والصراع على الخلافة في قرطبة بين الأمويين والبربر ،
واستقلوا بشرق الأندلس ، واستبد كل بإقليم من هذا الشرق .

وهكذا قصد ابن دراج المريّة حيث خيران العامري ، كما قصد بكنة نسبة
حيث مبارك ومظفر ، كما قصد شاطبة حيث ابن أفلع ، كذلك قصد طرطوشة
حيث لبيب . وظل شاعرنا في هذا التنقل بين الموالى العامريين بشرق الأندلس
مدة أربع سنوات (من ٤٠٤ هـ إلى ٤٠٨ هـ) دون أن يحقق ما يأمل فيه من
استقرار وتقدير وهاوخ قصد .

وأخيراً قصد التجبيين حكام سرقسطة ، فاتصل أول الأمر بمنذرين يحيى التجبي ، ثم بابنه من بعده يحيى بن منذر ، وقد تحقق له في ظن حكام سرقسطة كثيراً مما كان يحلم به من أمن واستقرار وتقدير ، بعد نحو ثمان سنوات من الضياع والقلق والمعاناة منذ قيام الفتنة (٣٩٩) إلى ذهابه إلى سرقسطة (٤٠٨) . ولذا عاش ابن دراج في ظل التجبيين أكثر من عشر سنوات مردداً في منذرين يحيى ثم في ابنه يحيى بن منذر . كثيراً من قصائده ومقطوعاته ، التي تبلغ نحو ثلث شعره الذي يحتفظ به ديوانه . . وقد اتصل ابن دراج في الوقت نفسه بطائفة من كبار رجالات الدولة في سرقسطة ، قائلًا ، فيهم بعض شعره .

وقد كان لتحقيق أحلام ابن دراج في سرقسطة ما يغنيه عن مغادرتها إلى غيرها من أقاليم الأندلس ، فنحن لا نعرف له رحلة عنها منذ وفد عليها ، إلا رحلة إلى دانية ، حيث كان عليها مجاهد العامري . . وربما كان السبب في هذه الرحلة إلى دانية بعد الاستقرار في سرقسطة ، هو الرغبة في التغيير بعد طول المقام في سرقسطة ، وربما شجع عليها ما عُرِف عن مجاهد من تقرب للعلماء ورعاية للشعراء واشتغال بالعلم وممارسة للأدب . وربما كان من دوافعها كذلك بعض الأحداث التي كدرت صفوة علاقة ابن دراج بيحيى بن منذر بعض الوقت ، والتي شكوا منها في بعض أشعاره الأخيرة المتصلة بهذا الأمر . . ومهما يكن من أمر فقد وفد شاعرنا على مجاهد في المرة سنة ٤١٩ وتوجه ببعض شعره إليه . . وأغلب مؤرخي حياة ابن دراج على أنه عاد بعد حين إلى سرقسطة حيث مات بها سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) وقد تجاوز السبعين . . وإن كان يرى محقق ديوانه ، زميلنا الدكتور محمود مكى « أنه ربما كان الأرجح أن ابن دراج توفي في دانية » . ويستند الدكتور مكى في ذلك إلى « أن الابن الوحيد الذي احتفظت كتب التراجم لنا ببعض أخباره من ولد ابن دراج ، وهو الفضل ابن أحمد ، كان من شعراء إقبال الدولة على بن مجاهد ، الذي حكم دانية

والجزر الشرقية بعد وفاة أبيه ممدوح ابن دراج . . . وفي رأي أن وجود ابن لابن دراج في دانية بعد وفاة الأب الشاعر ومجاهد العامري ، لا يكفي دليلاً على استقرار ابن دراج في دانية وعدم عودته إلى سرقسطة ، ولا بسوء مخالفة الذي عليه جُلّ المؤرخين ، من كون ابن دراج عاد إلى سرقسطة وتوفي بها بعد أن تجاوز السبعين .

٦ - شخصية ابن دراج :

هذا ، وقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعد عن التحرر الذي كان يتورط فيه كثير من معاصريه . فنحن لا نجد في أخباره . ولا نستشف من شعره هوا ولا مجونا ولا تحوراً ، بل على العكس يؤكد شعره أنه كان على كثير من الجلد والحساسية المسببين لشيء غير قليل من الأسى . . . على أن من أبرز ملامح شخصية ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة وتعلقه الشديد بالزوجة والأولاد . . . وأخيراً نرى من ملامح نفسية ابن دراج شعوره دائماً بالحاجة إلى الأمن ، وإحساسه أبداً بضرورة الاستقرار ، وفزعته الشديد من التشتت والتشرد والضيايق وتفرق الأهل .

٧ - شعر ابن دراج :

(١) ديوانه وموضوعاته :

يُعتبر ابن دراج من أغزر شعراء الأندلس شعراً ، بل من أكثر شعراء العربية إنتاجاً ، فقد خلف ديواناً ضخماً ، أكثره من القصائد الطوال ، التي يغلب عليها طول النفس . وقد حقق هذا الديوان تحقيقاً علمياً ممتازاً زمينا الدكتور محمود على مكى الأستاذ بجامعة القاهرة الآن . . . وظهر هذا التحقيق سنة ١٩٦١ .. وتأخذ معظم قصائد الديوان وقطعه عنوان المدح ، وتتضمن مادة هذا المدح كموضوع أساسي . ولكن ذلك لا ينبغي أن يخذلنا فنظن أن المدح

هو الموضوع الرئيسى عند هذا الشاعر ، أو أنه شاعر مداح فقط ، فأكثر القصائد التى دارت أساساً حول موضوع المدح أن عُنوانت به . لا تخلو من أغراض شعرية أخرى ، كثيراً ما زاحمت الموضوع الأصيل وطغت عليه ، وكانت أبرز ما فى القصيدة ، وأهم ما يبقى منها . فابن دراج لا ينبغى أن يؤخذ بغلبة عناوين المدح على قصائده ، ولا بإدارة معظمها حول المدح أساساً ، فهذا شئ فرضته طبيعة عصره الذى بدأ عملياً بفترة المنصور ، والذى انتهى بعهد الطوائف ، مروراً بأيام الفتنة كما عرفنا . كما فرضت هذا الشئ أيضاً طبيعة ابن دراج ، وإلفه لحياة خاصة فيها استقرار ورغد وسد لاحتياجات الأسرة العديدة . لذلك لا يمكن أن تُغفل هذه الموضوعات الجانبية أو الثانوية الهامة العديدة ، التى التى تضمنتها قصائده مهما كان بها من مدح .

وأهم هذه الأغراض والموضوعات - غير المدح - وصف مواقف الوداع وفراق الأهل ، ووصف الأسفار ومشاق الرحلة فى البر والبحر ، والنهار والليل ، ثم التعبير عن تجارب القلق والغربة والضيق ، وتجسيم قسوة الأيام على الأب حين تثقله مسئوليات أبنائه ، وحين يرى عياله عاجزين أمام قسوة الأحداث . ويرى نفسه كذلك عاجزاً عن أن يكون لهم كما يريد ويريدون . . كذلك من أهم موضوعات شعر ابن دراج التى لا ينبغى أن تضيع فى زحمة عناوين المدح ومادته ، موضوع وصف المعارك الحربية ، ومشاهد الجيوش والعدد البرية والبحرية . . وأخيراً من أهم موضوعات شعر هذا الشاعر تسجيل كثير من الأحداث التاريخية ، وخاصة تلك التى تتصل بالعلاقات بين الأمراء المسلمين والأمراء المسيحيين . وهو تسجيل أدبى شعرى بطبيعة الحال .

فابن دراج كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، وصَّافٌ ماهر لما يكون فى مواقف هذا الوداع من مشاهد حسية وآلام نفسية . وقد اتجه هذه الوجهة

منذ أولى قصائده التي دخل بها عالم الشهرة ، وهي قصيدته الهائية التي أنشدها المنصور . والتي يقول فيها :

ولله عزى يومَ ودعتُ نحوَه نفوسا شجاني بثُّها وشجابه
وربَّته خدرُ كالجُمان دموعها عزيز على قلبي شطُوطُ نواه
وبنت ثمان لا يزال برؤعي على النأي تذكارى خفوق حشاها
وموقفُها والدينُ قد جدَّ جدُّه مُنوطاً بجبلى عاتقى يداها
تشكَّتى جفاء الأقربين إذا النوى ترامت برحلى في البلاد فناها

فالشاعر لا ينسى خلال قصيدته المدحية أن يذكر موقف الوداع بينه وبين أهله . ويخص بالذكر زوجته التي كانت تبكى بدمع كالجمان ، وابنته ذات الثمان ، التي كانت أحشاؤها تخفق اضطراباً وحزناً لفراق الوالد ، ثم يصورها وقت الوداع . وقد تعلقت يداها بكتفيه وراحت تشكو إليه ما قد يصيبها بعده من جفاء الأقربين .

ومن أروع شعر ابن دراج في هذا الصدد ، ما قاله في رائيته التي عارض فيها قصيدة أبا نواس في الخصيب بنى عبد الحميد صاحب خراج مصر والتي يقول فيها :

تعمل التي من بينها خفَّ مركبى عزيز علينا أن نراك تسيرُ

وكانت هذه المعارضة بناء على اقتراح المنصور . وإذا كان أبو نواس قد ألم في قصيدته بذكر الزوجه ومحاولتها تعويق الزوج عن السفر تعلقاً به ، وبين أنه عصاها لتعلقه وانجذابه إلى الممدوح ، فإننا نرى ابن دراج يتفوق بشكل رائع على سلفه أبى نواس ، فيتجاوز ذكر الزوجة وتعويقها ، إل ذكر الطفل

الذى من شأنه أن يشد الوالد إلى المنزل ويثنيه عن المضى في السفر . والذى يدرك — رغم صفر سنه عن الكلام — كل ما يفرضه الموقف من حزن وألم وتمزق بين الوالد المسافر والأم المقيمة . . وفي تلك القصيدة الرائعة الرائعة يقول ابن دراج :

دَعَى عِزَمَاتِ الْمُسْتَضَامِ تَسِيرُ فَتُسْجَدُ فِي عَرْضِ الْغَلَا وَتَغُورُ
لَعَلَّ بِمَا أَشْجَاكَ مِنْ لَوْعَةِ النَّوَى بَعِزُّ ذَلِيلٍ أَوْ يَفَاكَ أُسِيرُ
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الثَّوَارَ هُوَ النَّوَى وَأَنَّ بَيْوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ

إلى أن يقول :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أُنَّةٌ وَ زَفِيرُ
تَنَاشَدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى وَفِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَبِيٌّ يَرْجُوعُ الْخُطَابَ وَلِحْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النَّفْسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ الْقُلُوبِ وَمُهَدَّتْ لَهُ أَذْرِعَ مَحْفُوفَةٍ وَنَحُورُ
فَكُلُّ مُفْدَاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعُ وَكُلُّ مَحْيَاةِ الْحَاسِنِ ظَمِيرُ
عَصِيَّتُ شَفِيعِ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحٌ لَتَدَابِ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الشَّوْقِ بِي وَهَفَتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ

وابن دراج وصَّاف للرحلات . مفصل القول فيها بربة وبحرية . . بكل ما فيها من معاناة وقسوة وآلام . . ومن أشعاره الكثيرة في الرحلة برا - نهارا ثم ليلا - في نفس القصيدة السابقة :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي وَالصَّوْأِ خَدُّ عَلَيَّ وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُودُ
أَسْلَطَ حَرَّ الْمَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا عَلَيَّ حُرٌّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ

واستشق النكباء وهى بوارح
وللموت فى عين الجبان تلون
كبان لها أنى من الضيم جازع
ولوبصرت فى والمسمى جل عزمى
وأعتسف المومة فى غسق الدجى
وقد حومت زهرُ النجوم كأنها
ودارت نجومُ القطب حتى كأنها
وقد تحيَّلت طرُقُ المجرة أنها
وثاقب عزمى والظلام مروع
لقد أيقنت أن المنى طوع همتى

واستوطن الرمضاء وهى تفور
وللذعر فى سمع الجرى صغير
وأنى على مَضَى الخطوب صبرو
وجرمتى لحنان الفلاة سمير
وللأسد فى غيل الغياض زفير
كواعب فى خضر الحداث حور
كتوس مَهْأ والى بين مَدير
على مفترق الليل البهيم قدير
وقد غمض أجفان النجوم فتور
وأنى بعطف العامرى جدير

ومن أشعاره الكثيرة فى الرحلة بحراً ، قوله فى قصيدته النونية التى قالها حين
وقد على خيثران العامرى :

إليك شحناً الفلك تهوى كأنها
على بلج خضر إذا هبت الصبا
موائل ترعى فى ذراها موائل
وفى طي أسمال الغرب غرائب
يُردِّدْنَ فى الأحشاء حرَّ مصائب
إذا غيض ماء البحر منها مددنه
وإن سكنت عنا الرياح جرت بنا
بقلن وموج البحر والهم والدجى
ألا هل إلى الدنيا معاد ، وهل لنا

وقد دُعرت عن مغرب الشمس غراب
ترامى بنا فيها ثبير وشلان
كما عبت فى الجاهلية أو ثان
سكن شفاف القاب شيب وولدان
تزيد ظلاماً ليلها وهى نيران
بدمع عيون تمتدَّهن أشجان
زفير إلى ذكر الأوبة حنَّان
تموج بنا فيها عيون وآذان
سوى البحر قير أو سوى الماء أكفان

وابن دراج كثير الحديث عن أولاده ، دائم الحنين إليهم والاهتمام بأمرهم.

وربما كان هذا الموضوع أهم موضوعات ابن دراج الشعرية الإنسانية ، التي تتخلل قصائده . فقد ذكر أبناءه ألوانا مختلفة من الذكر . بلغت أكثر من عشرين مرة في ديوانه . وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر . ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التي أحاطت بابن دراج ، من شدة حساسيته ، إلى قسوة الحياة أيام الفتنه عليه ، إلى كثرة هؤلاء الأولاد أخيراً كثرة بلغت بهم بضعة عشر ، بين بنين وبنات . ولهذا كله نرى ابن دراج يكاد يكون أكثر شعراء العربية ذكراً لأولاده وشكايه من قسوة الأيام عليهم ، ومن عجزه عن تحقيق ما يجب لهم . ومن ذلك ماضى من حديثه عن بنته بنت الثمان ، وعن طفله الصغير الذى هو عيسى بمرجوع الخطاب . الخطاب ، ولكنه خبير بموقع أحزان والديه . ومنه أيضاً قول شاعرنا فى اغتراب أبنائه رغم تعلقه بهم ، وتشردهم عنه رغم احتياجهم إليه :

شدَّ الجلاءُ رحالهم فتحملتُ	أفلاذُ قلبٍ بالهموم مبددٍ
وجرَّتْ بهم صعقاتُ روعٍ شردت	أوطانهم فى الأرض كُلىَّ مشردٍ
لا ذاتُ خدرٍ لهمُ برامٍ لوجهها	كنَّ ولا ذو مهدٍ بهم بمهدٍ
عاذوا بلمع الآل فى ممدِّ الضحى	من بعدِ ظلٍ فى القصور بمدد
من كل عارٍ بالتجمل مكتسٍ	ومزودٍ بالصبر غير مزود

ويقول ابن دراج فى قسوة الأيام على أبنائه ، وحملها إياهم على التشرد والاغتراب حتى أصبحوا يتمزقون كلما رأوا صاحب دار أو مالك مقر ، حتى ولو كان طيرا له عش أو حيوانا له مربض :

فى أهل دار كالكوكب والنوى	بعد النوى فلك بهم دَوَّارُ
كانوا جمالا للزوان فأصبحوا	وهم عليه بالتغرب عمار

تنبو الديارُ بهم وتلك ديارهم غرضَ المصائبِ ما بها ديارُ
يتأوهون إذا رمت أوهامهم ذارا لساكنها بها استقرارُ
ويهيجهم عينُ لُحْنٍ مرابض ويشوقهم طيرُ لما أركارُ

ويقول كذلك وهو بصور حال ممدوحه في قدرته ، ثم حاله هوى عجزه ،
ومع ذلك بفعل أقصى ما يستطيع أب من أجل راحة أولاده :

وقد عاذَ أبطالُ الجلالِ بعطفه كما عاذَ أطفالُ الجلاءِ بعطفيا
وقد قصرتُ عنه رماحُ عداته كما قصرتُ عنهم ريشُ جناحي
ولكن أواشى بين عارٍ ولا بسٍ أفلّص عن ذيتي لأثني على نبيا

ولكثرة تردد ذكر الأبناء والأهل في شعرا بن دراج ، ولكثرة إشارة الحديث
عنهم بهذا الشكل الذى مانظن أن شاعراً آخر قد وصل إليه ، يمكن أن نطلق
على هذا الشاعر الأندلسي « شاعر الأسرة » أو « شاعر الحب الأسرى » .

وديون ابن دراج مغمم بوصف المعارك ومشاهد الجيوش ، وذلك لارتباطه
بمحكم عرقوا بخوض المعارك مثل المنصور ، ومنذر بن يحيى التنجيبي . . ومن
ذلك قوله لهذا الأخير :

في جفعل كالليل جرارٍ له من عزِّ نصركِ جفعل جرارُ
أمددت فيه بالملائكة التي نصرتُ بها أعمامك الأنصار
وكسوت فيه الشمسُ برءاءَ جاجة للموت تحت ظلالها إسفار
والجوُّ يحتمى والدماء سواكب والأرض ربا والسما غبار
والمقفرات سوابق وخوافق والشاهقات أسنة وشفار
كلُّ "رفعن" صدورهن لغارة ما إن لها قبل الصدور مغار

(ب) اتجاهه وسماته :

وشعر ابن دراج من الناحية الفنية يسير في الاتجاه المحافظ الجديد ، فهو ليس شاعراً محافظاً قديماً كشعر جرير والفرزدق من المشاركة مثلاً ، وليس شعراً محدثاً كشعر أبي نواس ومدرسته كذلك ، ولكنه من مدرسة أبي تمام والبحتري وأبي الطيب وابن هاني ، ممن عادوا إلى التقاليد المحافظة في الشعر ، لكن مع الاستفادة من الجديد المقبول وغير المنافي للتقاليد العربية ، من كل ماأمدت به الحضارة الجديدة من علم وفكر وفن . . ويعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه في الأندلس في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري .

وبرغم أن ابن دراج كان يسير في هذا الاتجاه الذي سار فيه غيره من المشاركة والأندلسيين ، قد كانت له سمات خاصة تجعل لشعره شخصية متميزة واضحة بين أصحاب هذا الاتجاه في المشرق والأندلس جميعاً . ويمكن أن نلخص تلك السمات في خمس ، وهي : اللون المحلي ، والشعور الأسرى ، والتحليل المعنوي ، الوصف النفسي ، والتفصيح الثقافي .

أما سمة اللون المحلي ، فنعني بها كون الشعر واضح التأثير بطابع الإقليم ومؤثراته . وشعر ابن دراج بين الأندلسية بشكل يدل قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس ، المتأثرين بطبيعتها الجغرافية ، وأحوالها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية وحالتها الثقافية ، وخصائصها اللغوية ، أعظم تأثير . . ويكاد ابن دراج يكون من هذه الناحية من القلة المتفردة من الشعراء الأندلسيين ، الذين لا يخطئ متلقى شعرهم أندلسيتهم ، حتى ولو لم يكن يعرف هذا المتلقى من صاحب هذا الشعر . فبمجرد قراءة قصيدة يحكم المتلقى بأن صاحبها لا يمكن إلا أن يكون أندلسياً ، بل يوشك أن يحدد الفترة التي عاش فيها والأحداث التي ألم بها والحاكم الذي كان على عهده .

أما الطبيعة الجغرافية فواضحة جداً في جمل شعر ابن دراج حيث

يكثُر مثلاً من ذكر البحر واستمداد الصور منه ، تأثراً بموقع شبه الجزيرة الأندلسية المحوطة بالأمواء من معظم الجهات . بل أنه يكثُر من ترديد أسماء بلاد وأقاليم وأماكن من شبه الجزيرة . حتى تلك التي كانت ضمن الإمارات المسيحية غير الداخلة في نطاق أرض المسلمين . ومن ذلك قوله مخاطباً منذر بن يحيى انتجى :

وَبَسَطْتَ مِنْ «قَشْتَنَةِ» يَدَ آمِنٍ لِرِضَاكِ فِيهَا بَارِقٌ وَسُورُ

« وقشله » في البيت يريد بها « كاستيلا » هذا الإقليم الإسباني المعروف

Castila

ومنه أيضاً قوله مخاطباً المنصور بن أبى عامر :

وَبِعَةُ «شَنْتَ قُرُوجَ» أَوْرِيَتْ فَوْقَهَا سَنَا لُحْبٍ فِيهِ لَعِمَانُهَا شَرْحُ

و«شَنْتَ قُرُوجَ» في البيت هي المعروفة اليوم باسم «سانتا كروث» Santa cr.

ومن ذلك كذلك قوله مخاطباً عبد الملك بن المنصور :

« وَقُلْنِيَّةٌ » أَتَشَأْتُ فِيهَا عَارِضَا لِلْحَرْبِ أَهْرَقُ بِالْخَوْفِ وَأَرْعَدَا

« وَقُلْنِيَّةٌ » في البيت ليست إلا مدينة « كلونيا » Clunia المعروفة

في إقليم « قشتالة » .

ومنه أيضاً قوله في منذر بن يحيى :

فَتَتَّ مِنْهَا قَوَاصُ «بَنْبَلُونَةِ» بِالْهَدْمِ وَالنَّارِ فَتَنَّا فِتَّ فِي عَصْدُهُ

« وَبَنْبَلُونَةُ » في البيت هي العاصمة المعروفة لإقليم نبرة . وهي بالإسبانية

Panplona

وأما الأوضاع السياسية للأندلس فتعكس معالمها في شعر ابن دراج بشكل واضح ،
 يجعل من هذا الشعر في جملته « ديوان الأندلس في ذلك الحين » قياساً على قول
 الأقدمين إن الشعر الجاهلي هو « ديوان العرب » . وأبرز ما يلفت النظر من تلك
 الأحداث - التي كثرت الإشارة إليها في شعر ابن دراج - تلك الأحداث
 المتصلة بعلاقة الأمراء المسلمين بالأمراء الإسبان المسيحيين . فابن دراج كثير
 الإشارة إلى ما يتعاور على تلك العلاقات من عداوة وحرب حيناً ، ومهادنة
 وسلم حيناً آخر ، ثم وساطة أو سفارة أو ارتباط في بعض الأحيان . . . وخلال
 ذلك نرى عدداً غير قليل من أسماء الأمراء المسيحيين الإسبان يتخلل أشعار ابن
 دراج ، مرتبطاً بما قد يكون من حادثة سياسية من تلك الحوادث المختلفة .
 ويأتى ذلك على وجه لا نكاد نراه عند شاعر أندلسي آخر .

ومن هذا قول ابن دراج يوم قدوم ملك البشكنس (أو إمارة نبرة) وهو
 شاتنج بن غمرسية ، المعروف باسم « سانشو » الثاني Sanchus الثاني
 جاء إلى قرطبة معلناً الطاعة للمنصور بعد طول صراع وحرب بينهما :

فله يوم جلّ قدرٌ عديده	وُعدته عن مثلما وكأنا
جنود كأن الأرض من لمعنها	بروق تلالاً أو حريق تضرما
سحاب من البيض الخواف قد علا	وبحر من السرد المضاعف قد طما
بكل كمي عامري كأنما	تسريل من شمس الضحى وتعمما
يحيى الأمير بالحياة مبشرا	وإن كان قد فاجاه بالموت معلما
وقد طامنا لاقاه قرنا مساورا	فوشكان ملاقاه حزياً مسلما
كأن النجم الزهر حنفت بوجهه	فأدته محروساً إلى قمر السما

ومن لأحداث التاريخية التي أشار إليها ابن دراج محدداً اسم بطلها الإسباني .

وفادة أمير قشتالة شانشيه بن غرسيه، المعروف فيما بعد باسم «سانشو الأول» Sancho I حين وفد على المنصور بن أبي عامر في قرطبة سنة ٣٨٢ مؤكداً الطاعة والمسالمة . . ويؤكد محقق ديوان ابن دراج أن الشاعر تفرد بإيراد هذه الوفادة التي لم تتحدث عنها كتب التاريخ الإسلامية والمسيحية . . يقول الشاعر :

وقد تيمّم « شَنْجُ » منك عائدة تجيره من سيوف الكرب والوجل
وقاد نحوك - والتوفيق يقدمه - جيشاً من الذل ملء السهل والجبل
مستعظاً لحياة جَلٍّ مطلبها عن مبلغ الكتب أو مستعطف الرسل
ومن ذلك أيضاً قول ابن دراج مخاطباً منذ بن يحيى التجيبي :

ودنا ابن « رُدْمير » يزلزل خطوهُ أملٌ تقسّم نفسه وحسدارُ

وابن « رُدْمير » هذا هو ملك ليون، ألفونسو الخامس، نسبته الشاعر إلى جده رامير و . Ramir
ومن هذا القبيل قول ابن دراج :

« وفردّ لَنَدُ » رددت الملك في يده وما رجا غير رَدِّ الروح في جسدهُ

وفردّ لَنَدُ هو فرناندو بالإسبانية « Fernando » ويبدو أنه كان أحد المنشقين على سانشو ملك نبرة، وأنه بمساعدة منذ بن يحيى استطاع أن يحكم .

وشعر ابن دراج يعكس الأوضاع الاجتماعية للأندلس - في عصره - بشكل واضح . فهي استقرار وانتصار ومجد أيام المنصور، وهي صراع وضياع وتمزق أيام الفتنة، ثم هي هدوء نسبي ودويلات صغيرة أول عهد الطوائف..

كذلك يعكس شعر ابن دراج حالة الأندلس الثقافية . وما وصلت إليه من
نضج في شتى فروع المعرفة الإنسانية وخاصة الجانب اللغوي والتاريخي والأدبي .
بل إن شعر ابن دراج ينضح بهذه الثقافة بشكل يلفت النظر ، حتى اعتبرنا
خاصة النضج الثقافي من سمات شعره .

على أن من أهم ما يلفت النظر من ذلك هو هذا الجانب اللغوي المحلي
الذي تفرد به الأندلسيون ، الذين كانوا يعرفون - أو يعرف بعضهم - شيئاً من
لغة معايشهم الإسبان المسيحيين . وفي شعر ابن دراج نماذج قد استخدم فيها
ألفاظاً من تلك اللغة اللاتينية الأصل ، وكان في استخدامه لها على معرفة
تامة بمعانيها عند أصحابها . ومن ذلك قوله مستخدماً لفظه « لونه »

بمعنى القمر ، في قصيدة تتصل بانتصار لعبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ،
فتح فيه الحصن الذي يحمل هذا الاسم في مملكة ليون سنة ٣٩٥ (١٠٠٥ م) :

ولا مثل يوم نحو « لونة » سرته وقد قنعت شمس النهار غياهبه
إلى أن يقول :

فياليت قوطا حين شاد بناءه رآه وقد خربت إليك جوانبه
وواليت إذ سماه بذكرًا معظمًا رآه وفي كسف العجاج مغاريه

ومن ذلك أيضاً قول ابن دراج مخاطباً صديقاً :

وانصب مجانيقا من « النِّيم » التي أحجارهن من « الرِّواطم » والنَّخَب

والنِّيم في هذا البيت : جمع نيمة . وهي عند الأندلسيين القنينة ، و« الرِّواطم »
جمع رَطُومة ، ومعناها الزجاجاة . وهي لفظ أندلسي مستمد من اللاتينية الدارجة
(الرومانشي) واللفظ الرومانثي Radoma

وهكذا نرى أن ابن دراج شاعر أندلسي أصيل ، حتى ليتمكن أن يسمى أيضاً لهذه الخاصة الواضحة « شاعر الأصالة الأندلسية » .

أما الشعور الأسري ، فقد مَضَّتْ نماذج تؤكد أنه أثناء الحديث عن موضوعات شعر ابن دراج .

وأما الوصف النفسي ، والتحليل المعنوي اللذين اعتبرناهما من خصائص الشاعر ، فيمكن أن نتأمل فيهما بعض ما مر من نماذج شعرية وخاصة ما هو متصل بأحزان الشاعر ومواقفه الماطفية . ففي هذه النماذج نرى كيف يهتم هذا الشاعر بالجانب النفسي أعظم اهتمام ، وكيف يحلل الفكرة ويتقصاها حتى يكاد يُقَطِّرها ، على نحو يشبه ما كان يفعله ابن الرومي الشاعر المشرق الكبير .

وأما النضج الثقافي فينطق به شعر هذا الشاعر الغزير الثقافة التاريخية والأدبية واللغوية ، حيث تكثر فيه الإشارة والإحالة والتلميح إلى شخصيات وحوادث تاريخية ، وأسماء وقضايا أدبية ، وقواعد وطرق نحوية .
فما ينضج الثقافة التاريخية قوله لبعض ممدوحيه :

وأصبتُ في سبأ مورثٌ مُلكها	يسبي الملوكة ولا يدب لها الضر
فكأنما تابعتُ تَبَعَ رافعا	أعلامه ملكا يدين له السورى
والخارث الجفنى ممنوع الحمى	بالخيل والآساد مبدول الترى
وحطتُ رحلى بين نادى حاتم	أبام بقرى موسرا أو معسرا
ولقيتُ زيدا الخيل تحت عَجاجة	تكسو غلا ثلها الجياد الضمرا

وما ينضج الثقافة الأدبية قوله :

إن امرأ القيس في بعض لمتهم	وفى يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيدته	دهرا ، وقد قيل : والأعشى إذ طربا

ومما فيه تلميح بالنحو قوله :

وقد تخفّض الأسماء وهنى سواكن* وَيَعْمَلُ فِي الْفَعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِير

٨ - منزله :

وقد كان ابن دراج ذا منزلة شعرية عظيمة ، حتى قال عنه ابن حيان مؤرخ الأندلس العظيم : « وأبو عمر القسطلی سباق حلبة الشعراء العامرين ، وخاتمة محسنی أهل الأندلس أجمعين » . وقال عنه ابن بسام صاحب الذخيرة : « وكان أبو عمر القسطلی وقته لسان الجزيرة شاعراً ، وأولاً حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملي لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها » . . كما قال عنه ابن حزم القرطبي : « لوقلت : إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » . . كما قال عنه أيضاً : « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبى » .

وكانت لابن دراج شهرة كبيرة في المشرق ، فقد ذكره الثعالبي في اليتيمة ، ونقل بعض أشعاره ، وقال عنه : « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول » .

وقد تسبب عدم ظهور ديوانه كاملاً في تاريخ مبكر ، وعدم إلمام بعض الدارسين بكل جوانب شعره نتيجة ذلك ، في تورط هذا البعض في أحكام خاطئة على ابن دراج وشعره . ومن أشهر من تورط في هذه الأخطاء ، المرحوم الأستاذ أحمد أمين في « ضحى الإسلام » ، والدكتور أحمد ضيف في « بلاغة العرب في الأندلس » . وليس هنا مجال مناقشة آراء هذين الناقدين الكبيرين . وحسبنا أن أوضحنا في هذه المقالة أهم جوانب حياة الشاعر وأبرز سمات فنه ، مركزين على جانب الأصالة الأندلسية فيه :

ابن زيدون

الشاعر الوزير العاشق

هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي (١). عاش
صدر حياته في أواخر العهد الأموي بالأندلس، وعاش بقية عمره في عصر ملوك
الطوائف . . فلما أحاطت الفتن بقرطبة في آخريات العهد الأموي ، كان
من الزعماء الثائرين على الفساد ، ومن المساعدين في تقويض السلطة الأموية ،
ولإقامة الحكم الجديد الذي كان على رأسه أبو الحزم بن جهمور ، هذا الحكم
الذي يعد قيامه في قرطبة الإعلان الرسمي لقيام عصر ملوك الطوائف . .

وفي ذلك العصر انقسمت الأندلس إلى دويلات ، يحكم كلا منها ملك
مستقل . فعلى حين كان ابن جمهور في قرطبة . كان ابن عباد في إشبيلية ،
وكان ابن الأفضس في بطليوس ، وكان ابن ذى النون في طليطلة . وهكذا . .
وكان هذا التقسيم سبباً في التناحر المؤدى إلى الضعف السياسى والعسكرى .
وإن كان من جانب آخر قد خلق جواً فكرياً وأدبياً على كثير من الازدهار ،
وذلك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف . . ومحاولة كل منهم أن يحيط نفسه
بأكبر عدد من العلماء والأدباء . . كذلك عرف هذا العصر كثيراً من الحرية
الاجتماعية ، التى رفعت يد التحشم والمحافظة عن العادات والتقاليد ، وأتاحت
للملوك الشخصى تحوراً لم يعرف في غير هذا العصر ، وربما لم يعرف في غير
الأندلس من أقاليم العالم العربى القديم . .

وقد ارتفعت منزلة ابن زيدون بعد قيام العهد الجديد في قرطبة حتى أصبح

٥ نشر هذا المقال في مجلة الهلال عدد يونية سنة ١٩٧٢ .

ولد سنة ٢٩٤ هـ بناحية الرصافة من ضواحي قرطبة .

من وزراء ابن جهور . إلا أن العلاقة ساءت بينه وبين الحاكم بعد حين . حتى حبس في قرطبة وعانى كثيراً من الضيق والألم . ثم استطاع أن يهرب من سجنه ، ولجأ إلى إشبيلية التي كان ملكها المعتضد بن عباد ، الذي أكرم ابن زيدون وقربه . ولكن الحنين استبد بالشاعر بعد فترة ، فعاد إلى قرطبة مستخفياً ، واعتذر إلى ابن جهور مستعيناً ببعض الأصدقاء ، حتى عفا عنه وفضل كسبه إلى جانبه . .

ثم مات أبو الحزم بن جهور ، وخلفه ابنه أبو الوليد ، الذي كان صديقاً لابن زيدون وقربه وجعل مكانته أعلى مما كانت أيام أبيه . . ولكن ذلك لم يستمر . فقد عملت الوشايات عملها في تنفير أبي الوليد منه ، فتنكر للشاعر الذي آثر الارتحال مرة ثانية إلى إشبيلية ، حيث تلقاه ملكها المعتضد — من جديد — تلقياً حسناً . وجعله من وزرائه .

ولما مات المعتضد وجلس على عرش إشبيلية ابنه المعتمد . أقر ابن زيدون على الوزارة ، بل زاد في إعلاء شأنه ، إذ كان الملك الجديد من الشعراء الذين قد عرفوا قدر الشاعر الكبير ابن زيدون . . وأخلص ابن زيدون — بدوره — للمعتمد ، وساعده في ضم قرطبة إلى ملكه . . وحينئذ عاد إلى قرطبة بلده ، وحسب أنه سوف ينعم بالهدوء . ولكن أعداءه كادوا له ، وزينوا للمعتمد أن يبعث به إلى إشبيلية . . وكان الرجل قد تقدمت به السن ، وتصالحت عليه الأحداث . فكانت نهايته في هذه الرحلة (١) .

وكان لبطلنا شخصية تتسم بسمات خاصة قلما تجتمع كلها في بطل . فهو مديد القامة قوى البناء ، مهيب الطلعة وسيم الخلقة . . وهو أيضاً أبلئ النفس ذكى العقل مرهف القلب . . وهو على الرغم من حدته وحساسيته

صامد صبور متفائل ، ذو خبرة واسعة بالناس والحياة وطبائع الأشياء . كل ذلك إلى ثقافة واسعة وموهبة شعرية ممتازة وقدرة أدبية فائقة .

وأبرز شخصية في حياته هي الشاعرة الأميرة ولادة بنت الخليفة الأموي الأندلسي محمد بن عبد الرحمن ، الملقب بالمستكني بالله . وكان هذا الأب أحد هؤلاء الخلفاء الضعاف الذين توالوا على حكم الأندلس خلال تلك الفترة المضطربة التي شهدت انهيار العهد الأموي ثم قيام عصر الطوائف . .

ومهما يكن أمر هذا الخليفة الأب وضعفه ، ثم هروبه وموته مسموماً ، ومهما يكن أمر أسرتها الأموية جميعاً ، وانتهاء أمرها في الأندلس . فليس من شك في أن هذا الأب قد أنجب أنثى رائعة الجمال قوية الشخصية واسعة الثقافة عارفة بالأب مقدره على قول الشعر . وليس من شك أيضاً في أن تلك الأسرة قد خلفت أميرة فيها ثراء الأميرات وبذخهن ، إلى جانب ما يُعرفن به عادة من كبرياء لا يقهرها إلا الحب . ومن نزوات ومغامرات لا يوقفها إلا مهاجمة الشيخوخة وتصويجها لنضارة الحسن ، ثم تعويقها لنبض القلب . .

فقد أضافت ولادة إلى تحرر عصرها ألواناً من التحرر التي أتاحها لها ظروفها الخاصة ، فجعلت من قصرها ملتقى أدبيا ، تستقبل فيه الكتاب والشعراء والنقاد ، حيث يكون تناشد الشعر والحوار في الأدب والنقاش في النقد ، وحيث يكون إلى جانب هذا الاستماع إلى الموسيقى والطرب بالغناء . ثم يكون خلال هذا كله مجال لتحريك العواطف نحو الفاتنة صاحبة (الصالون) - بل للتنافس على حبها ومحاولة كسب قلبها . .

والذي يغلب على الظن أن ولادة كانت على الرغم من ذلك كله بعيدة عن التبذل ، مصونة من الإسفاف . وكان حبها من اللعبة ظفراً بالإعجاب والحب والتقدير ، وتنافس الجميع في إرضائها والتغني بها . وقد أكد ذلك

المؤرخ الأندلسي الثقة ابن بسام ، حيث قال في كتابه الذخيرة عن ولادة :
كانت « يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ويتمالك أفراد الشعراء والكتاب على
حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة متابها . تخلط ذلك بعلونصاب ،
وكرم أنساب ، وطهارة أثواب . . . وقد تحدثت هي عن نفسها بما يؤكد هذا
فقلت :

إني وإن نظرت الأنام لبهجتى كظباء مكة صيدهن حرام
يُحسبن من لين الكلام فواحشا ويصدحن عن الخنسا الإسلام
وهذا التحرر الذي كانت تسمح به الحياة الاجتماعية الأندلسية ، والذي
أضافت إليه ولادة أبعادا جديدة بحكم كونها أميرة ضاع سلطان أسرتها ،
وضاع معه كثير مما كان يمكن أن تحافظ عليه من تحشم وتوقر ، ثم هذا الملتقى
الأدبي بكل ما يدور فيه من منافسات حارة وعواطف محتدمة ومهاجاة لازعة
نتيجة للمنافسات بل الخصومات — كل هذا قد جر ولادة إلى مجارة ضيوفها
وأصدقائها ومحبيها في بعض ما كانوا يخوضون فيه . فقد تورطت في الحديث
الصريح عن عواطفها — على غير عادة الشواعر العربيات وبخاصة في المشرق —
كما تورطت في بعض الشعر الذي يدخل في باب الأدب المكشوف ، والذي
لا عهد لنا بتأقيقه من النساء في تراثنا العربي . وكان أغلب هذا الشعر من ولادة
يأتى في مقام الهجاء الذي وجلت نفسها مسوقة إليه في جوملىء بالتناحر ،
الذي هو في كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون لعبة أدبية .

في هذا الإطار نستطيع أن نتصور ولادة ، ولا نستطيع أن نتجاوز هذا
التصور كما فعل بعض الباحثين ، حين استندوا إلى نصوص منسوبة إليها ، وإلى
أخبار مروية عنها ، فذهبوا إلى حد تصويرها واحدة من بنات الليل أو بائعات
الموى ، بل ذهب البعض إلى تصويرها امرأة مريضة بالشذوذ الجنسي . مصابة

بالعقد التى منها حب تعذيب الغير . . نعم لا نستطيع أن نتصور ولادة بهذا التجاوز المبالغ فيه ، مهما اعتمد فى هذا التصور على نصوص وأخبار ، فهذه النصوص وتلك الأخبار يشوبها الشك من وجوه كثيرة أهمها أنها تتعارض مع نصوص أخرى تؤكد عدم انحدار ولادة إلى هذا الدرك ، ثم إن تلك النصوص من الممكن أن توضع وتنسب إلى ولادة أو يتحدث بها عنها ، نتيجة لهذا الجوال الذى كان يحيط بها ، وهو جرم على بالتفافس والتناحر والخصومات والتهاجى .

فالراجح يمدح ويتغزل ويمجد ، والخاسر يهجو ويحرج ويستخف ، وقد يأخذ ذلك الهاجى المخرج المستخف طريقاً أكثر دهاء وأفظع خبثاً ، وهو طريق اختلاق الأخبار الكاذبة وانتحال الأشعار الموضوعة ، وإسناد هذه وتلك إلى الشاعرة المتحررة المتورطة ، التى جعلت من نفسها غرضاً يُرمى ، تارة بالورود والقبيلات ، وأخرى بالمهامم واللعنات .

ونحن نستبعد مرضها بحب تعذيب الغير ، الذى مال إلى اتهام ولادة به بعض الباحثين ، بحجة أنها صرعت بحبها عدداً من المحبين ، وعاشت بعد ذلك دون زواج ، وكأن رسالتها وغايتها إيقاع المحبين فى شركها وتعذيبهم فحسب — نستبعد ذلك لأن امرأة مريضة شاذة لا تستطيع أن يخفى أمرها على هذا النوع من الرجال الذين كانوا يهيمنون بها — وخاصة ابن زيدون الذى للملاح القوى الشخصية المحرب للناس والحياة — كما أن امرأة مريضة شاذة لا تستطيع أن تمنح الحياة الأدبية فى قرطبة ، ولا أن تمنح عارفها وأصدقائها ومحبيها هذا العطاء السخى من الحب والجاذبية والإلهام والنشاط الشعرى والفنى الموفور .

والذى نطمئن إليه فى أمر كثرة أحبابها وعدم زواجها . هو أنها كانت — لتحررها — مثلاً للصديقة والحبيبة المؤنسة ، ولكنها لم تكن تصلح زوجة . . ولهذا ساءفتوا عليها فى المجال الذى رأوها تصلح له ، وكفوا عنها فى المجال الذى

رأوها لا تجود فيه . . هذا من جانب من أحاط بها من الرجال ، أما من جانبها
هى ، فقد كانت شديدة الطموح والكبرياء ، فقضت عمرها - ككثيرات فى
كل زمان ومكان - تنتظر فارس أحلام خاص من صنع كبريائها وطموحها :
وهذا الفارس - عادة - لا يرضخ لمثل هذا النوع من النساء ،

ونعود إلى شاعرنا وصاحبه ، لئرى ابن زيدون يتردد على الملتقى الأدبى *
الذى تعقده ولادة ، وكان صاحبنا فى ذلك الحين قد نضج فنياً وارتقى اجتماعياً ،
فهو شاعر كبير ووزير خطير ، وهو إلى ذلك وسيم الطلعة رائع الهيئة ، ينتمى
إلى أسرة من كبريات الأسر الأندلسية ، وكان فى ذلك الوقت مكتمل الشباب
عزياً . . وأعجبت به ولادة كما أعجب بها . وتحول الإعجاب بسرعة إلى حب ..
وأخذ هذا الحب شكل الهيام الحار اللاهب . الذى تنديه اللقاءات العامة
بالماء ، التى يعيش عليها المحبون المتواصلون .

وقد بلغ هذا الهيام حداً جعل المحبوبة هى التى تطلب اللقاء فى بعض
الأحيان ، وتبى لها الوقت والجو ، ومن ذلك قولها :

ترقّب إذا سجن الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكرم للسر
وبى ملك ما لو كان بالشمس تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وكان ابن زيدون يحوطها بكل صون ، ويرعاها بكل حفاظ . ومن ذلك
قوله :

أصونك من لحظات الظنون وأعلمك من خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب وقد يستدام الهوى بالخذر

وكانت نيران الوجد تلهب الحبيبين حين تحتم بعض الظروف ابتعاد

أحدهما عن الآخر . حتى لقد كتبت ولادةُ إلى ابن زيدون مرة تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صبب إلى متى !
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمست في دار قطعة لقد عَجَّلَ المقدار ما كنت أتقى
تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ولا الصبر من رق التشوق معني
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هائل الودق مغدق

كما توجه ابن زيدون إلى صاحبه بأمثال تلك الأبيات :

وَدَعَّ الصبرَ محببٌ ودعكُ ذائع من سره ما استودعكُ
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطا إذ شيعك
بأخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلکم يمتُّ أشكو قصر الليل معك

وهكذا عاش ابن زيدون وولادة أول عهدهما في وصال معطاء ،
لا يقطعه إلا تباعد مؤقت واعد بمزيد من الرخاء .

غير أن الجو الذي كان يتنفس فيه هذا الحب لم يكن نقياً ، فقد كانت
تعكر صفوه ألوان من الحسد والمنافسة ومزاحمة الآخرين . فمعروف أن عددا من
الشعراء والكتاب كانوا يترددون على ملتقى ولادة ، وقيسون صلوات معها من
خلال الأدب وجلسات الاستماع . وقد كان جل هؤلاء ينفس على ابن زيدون
مكانته من ولادة ، ويعمل - ما استطاع - على إبعاده وإخلاء الجو لنفسه .
وكان من أبرزهم ابن القلام وابن عبدوس .

أما الأول فقد استطاع ابن زيدون أن ينحيه من طريقه ويحمله على الانسحاب

من الميدان . حين وجه إليه قصيدة قاسية جعلته يؤثر السلامة . . وأما الثاني فقد كان عنيداً داهية مأكراً ، فظل يزاحم ابن زيدون ، بل راح يكيد له عندها . فاضطر ابن زيدون إلى كتابة رسالة هزلية يسخر فيها منه . وجعلها على لسان ولادة . . ولكن هذه الرسالة زادت ابن عبدوس حنقاً على ابن زيدون ، فلم يكتف بإثارة ولادة عليه ، بل اشترك في تأليب ابن جهور ضده ، حتى انتهى به ذلك إلى السجن ، وخلا الجولابن عبدوس (١) .

على أن سجن ابن زيدون في قرطبة ، ثم فراره من السجن إلى إشبيلية . ثم عمله في دولة بني عباد ، وعدم إتاحة الظروف له أن يستقر في قرطبة بصفة دائمة ليواصل حياة طبيعية مستقرة ، هذا بالإضافة إلى انغماسه في السياسة وعدم تمكنه من رعاية حبه رعاية كاملة ، كل ذلك قد ألمى عنه ولادة إلى درجة تكاد تكون نهائية . . أما هو ، فقد عملت كل تلك العوامل على صقل نفسه وترقيق وجدانه وتعميق إحساسه بالأسى . فترك التورط في المكابدة ، وكف عن الأذى بالتعريض والتلميح فضلاً عن المباشرة والتصريح . . وكان ينتهر القصر المتاحة ليعبر عن جوهر حبه بعيداً عن كل الشوائب

وكان دائم التذكر لهذا الحب جاعلاً من عهده أجمل العهود ومن ذكرياته أحلى الذكريات . كما كان دائم المقارنة في أشعاره بين حاله بالأمس حيث الوصال والمودة تشرق بهما الدنيا وتنجم الحياة ، وبين حاله اليوم حيث القطيعة والتدابير يظلم بهما الوجود واقبح وجه الزمان . . ولقد أودع ابن زيدون في أشعاره التي من هذا اللون أعظم معاني الحب وأحر لواعج الصبابة وأروع صور التجارب العاطفية الصادقة .

(١) ظلت العلاقة بينهما حتى تجاوزا الثمانين . وقد مات هو سنة ٤٧٢ ثم مات عسى سنة ٤٨٤ هـ وقد قاربت المائة وبيدت ثروتها حتى كان يساعدها بعض الأصدقاء .

ومن هذا اللون من شعره . قصيدته النونية المشهورة التي بعث بها من
إشبيلية إلى ولادة بقرطبة ، وذلك بعد فراره من سجن ابن جهور والتجائه إلى
بلاط ابن عباد .

و تلك القصيدة يقول :

أضحى الثنائي بدبلا من تدانينا	وناب عن طبيب لئقينا تجافينا
بنم وبنا فما ابتلت جوانحنا	شوقا إليكم ولا جفت مآفينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضى علينا الأسمى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت	سودا ، وكانت بكم بيضا ليدينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا	بمربع اللهو صاف من تصفينا
لا تحسبوا نأيكم عنا بغيرنا	إن طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا	منكم ولا انصرفت عنكم أمدينا

ومن هذا اللون من شعر ابن زيدون كذلك . قصيدته القافية ، التي قالها
بعد أن عاد إلى بلده مستخفياً من إشبيلية . . والزهراء صاحبة قرطبة الجميلة ،
قد ألهمته أن يقول في هذه القصيدة التي بعث بها إلى حبيبته الأولى :

إني تذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنه رقى لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبسم	كما شفتت عن اللآيات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال عناقا
كأن أعنيه إذ عابنت أرقى	بكت لما بي فجال الدمع رقاقا
لوشاء حل نسيم الصباح حين سرى	وفاكم بغتي أضناه ملاقى

ولكن هذا الشعر وغيره لم يلين قلب ولادة ، ولم يفتح ثنائية لابن زيدون ، فقد تحطم حبه له بعوامل عديدة . منها مافسة الآخرين وتشويههم صورته ، ومنها تمكين ابن زيدون لأعدائه من نفسه ، وتورطه في الإساءة إلى حبيبته بما يجرح أنوثتها ويذم كبرياءها ، ومنها قوة شخصية كل من الحبيبين بحيث كان أحدهما لا يكمل الآخر وإنما كان يصدمه ويواجهه ، ومنها أن كلا منهما كان شاعراً ، وكان ابن زيدون أقوى شاعرية وأعظم شهرة ، بل كان أحياناً ينتقد شعر ولادة ، مما جعل إحساسها به يشوبه كثير من الإحساس بالخطر على الذات — ذات الشاعرة الكامنة في المحبة — التي تعز بقنفا اعتزازاً لا يمكن أن تضحي به من أجل رجل طاغٍ لامع ، لا تحب أن يحول نوره بريقها إلى ظلام .

ومن هنا كانت نهاية هذه القصة العاطفية نهاية طبيعية ، بأن انتهى الحب من قلب المحبوبة وأصبح ذكرى قد لا تحرك شعجنا ، على حين بقي هذا الحب في قلب الحب ، وصار لهيباً كامناً تفرجه أية نسمة تهب من مواطن الذكريات ، بل قد تحول هذا الحب لدى الحبيب الشاعر إلى رمز لمأساة حياته كلها ، تلك الحياة التي امتلأت بالصراع والعذاب والمرارة إلى جانب ما امتلأت به — في بعض الأحيان — من الوثام والحناءة والحلاوة . فكثيراً ما كان يبكي حظه ويندب أيامه ويتحدث عن عذاباته ، من خلال حديثه عن تجربة حبه . وكثيراً ما كان يتخذ حديثه عن ولادة وأيامه الأولى معها ، وأيامه الكئيبة بعدها تجسداً — أو معادلاً موضوعياً — لقصة حياته كلها ، وكأن حديثه عن حبه الخفق وعذابه بالهجر ومرارته بالقطيعة ، ليس إلا متنفساً يعبر بواسطته عن حياته المخففة وعذابه بتآمر الأعداء ومرارته بقطيعة حسن الحظ .

المعتمد بن عباد

الشاعر الملك السجين

كانت حياة هذا الشاعر صورة حية لتقلب الزمن . ومثالاً مجسماً لتناقض الأيام . بل كانت حياته هي الحياة نفسها ، بنهارها المشرق وليلها المظلم ، بربيعها الضاحك وخريفها العروس ، بقممها التي تصافح السحاب وسفوحها التي تعابش التراب . . هذه هي النظرة العابرة أو الشاعرة ، التي لا تحلل ولا تعال . وإنما تنفعل بالنتائج دون غوص في المقدمات . وتنظر إلى الأمور بعين العاطفة وتهتمسها بنبض القلب . من غير إرهاق لعين العقل في تلمس ما وراء هذا التقاب والتناقض من مسوغات أو مسببات .

على أنه إذا كانت النظرة المستأنية المتعلقة تنفي التناقض في الحياة ، وترجع كل ظاهرة إلى سببها وترد كل نتيجة إلى مقدمتها ، فكذلك حياة شاعرنا الملك السجين . الذي انتقلت به الحياة من قاعة العرش الوضاعة إلى زاوية السجين المظلمة . وانتزعت من يده صولجان الملك لتضع حول هذه اليد قيد السجين . . إن لهذا القلب الذي أخذ شكل التناقض أسبابه ومسوغاته من حياة الشاعر ، كما يأتي الظلام بعد الضياء ، ويعبس الخريف بعد ابتسام الربيع ! .

نشأ المعتمد في بيت ملك . فأبوه المعتضد بن عباد ملك إشبيلية في عهد ملوك الطوائف بالأندلس ، وجدته القاضي بن عباد - من قبيل أبيه - مؤسس ملك بني عباد في هذا الإقليم الأندلسي الكبير منذ أواخر العهد الأموي . وضعف الخلفاء الأمويين بقرطبة عن ضبط أطراف الدولة ، مما جعل بعض حكام الأقاليم يستقلون بها عن الحكومة المركزية الأموية .

وقد كان استقلال ابن عباد جد المعتمد بإشبيلية سنة ٤١٣ هـ .

أما المعتضد والد الشاعر ، فقد تولى ملك إشبيلية بعد موت أبيه سنة ٤٣٣ هـ ، وكان جباراً مهيباً . كما كان شاعراً أيضاً . وقد دعم مملكة إشبيلية ، وأحرز انتصارات كبيرة على خصومه .

وقد ولد له ابنه محمد قبيل أن يلى الملك بقليل . سنة ٤٣١ هـ . وكان مولده في مدينة باجة غربي الأندلس . وقد عُرف هذا الوليد الأمير بالذكاء . فلما شب — وكان أبوه المعتضد قد صار ملك إشبيلية — نشأه على الثقافة الرفيعة ، فأحب الأدب وكلف بالشعر . وقال نماذج جيدة منه منذ حدثته . ولكن الوالد الملك حمل الابن الفتي الأمير الشاعر مسؤوليات سياسية وعسكرية قد لا تتفق مع طبيعته الفنية وتكوينه الأدبي . فقد ولاه قيادة الجيش مرة وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة . كما عينه حاكماً على مدينة شلب وعمره نحو أربعة عشر عاماً سنة ٤٤٥ هـ . ولكن الأمير الشاب الفنان غلب عليه الانطلاق وعدم أخذ الأمور مأخذ الجد . وقد ساعد على ذلك التقاؤه في تلك المرحلة المبكرة من عمره بالشاعر المتحرر المغامر ابن عمّار . فقد توثقت بينهما الصداقة ، وتقاربت المشارب ، فكانت لهما لقاءات ومجالس ، تتجاوب فيها رنات الكئوس مع أنغام العידان . ويتعاقب خلالها إنشاد الأشعار وترجيع الألحان .

ثم دخلت شخصية ثانية حياة الأمير . جرفته أكثر إلى حياة الرفاهية والمتعة والإسراف في الملذات ، التي تنفع زاداً لفنان منطلق ولكنها تضر أميراً مسؤولاً ، وملكاً مستقبلاً . هذه الشخصية هي « اعتماد » الرثميكية ، التي كانت جارية تاجر من مياسير إشبيلية يسمى « رميك » . وقد رآها الأمير في إحدى زهراته مع صاحبه بن عمار ، فأعجب بها ، وزاد من تعلقه بها معرفتها الشعر وقدرتها على قرضه على البديهة . فاشتراها من مالِكها ثم تزوجها ، وظل مفتنًا بها محققاً كل تطلعاتها حتى ما كان يصل إلى درجة الحماسة . فقد حكوا

أنها رأت مرة بعض الفتيات الريفيات يمشين في الطين ، فطلبت من المعتمد أن تفعل مثلهم ، فجعل لها في حديقة القصر طينا صناعياً مناسباً من الكافور والطيوب وماء الورد ، ثم خاضت اعتماد في هذا مع جواربها . بل قيل إن المعتمد قد اختار لنفسه هذا اللقب بعد أن صار ملكاً لكي تتشابه حروف لقبه مع حروف اسم حبيبته . وكان قد خاف أباه المعتمد على الملك بعد وفاة الأب سنة ٤٦١ هـ . وقيل إنه اتخذ أولاً لقب المؤيد ثم الظافر .

ومنذ تولى المعتمد الملك مال إلى سياسة المسالمة والبعد عن المتاعب . حتى ولو كانت تلك المتاعب مما يحتمه الواجب ، كل ذلك لكي يفرغ إلى حياته ، حياة الفنان المنطق الذي يريد من الحياة أن تكون كما يريد . . . وقد جنى الشعب الأندلسي في إشبيلية بعض الخير العاجل من وراء تلك السياسة ، حيث خضت عنهم وطأة الحاكم التي قاسوا منها أيام أبيه المعتضد ، وحل محلها تسامح ورخاء وتعاطف وأمن . . . وكان الأدباء والشعراء أسعد الناس بالملك الفنان . فقد قربهم وكرمهم وجعل وزراءه وكبار رجال دولته منهم . وكان في مقدمتهم ابن زيدون وابن عمار . ولكن طبيعة المعتمد وطريقته في الحياة ، وسياسته في الحكم المتأثرة بطبيعته وطريقة حياته ، قد جرت عليه وعلى شعبه بعد ذلك كثيراً من الضرر . .

حقيقة قد حاول المعتمد أن يقوم ببعض الأعمال البطولية من وجهة نظره أو من وجهة نظر بعض مستشاريه ، ولكن تلك الأعمال كانت في أغلبها أذى للشعب الأندلسي ووبالاً عليه هو خاصة . مثلاً قد أسهل حكمه بتنفيذ ما خطط له والده من الاستيلاء على قرطبة عاصمة بني جهور . فلما حاصر يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة هذه العاصمة الأندلسية سنة ٤٦٢ هـ ، واستعان حاكمها عبد الملك ابن جهور بالمعتمد ، سير نحوه جيشاً ضخماً حمل الذنوبين على التراجع والانسحاب . ثم انتهز العباديون الفرصة فزحفوا نحو قصر ابن جهور ،

وأجبروه على التسليم ، ثم نُتِى هو وأهله . واستتب الأمر لبني عباد بهذه الطريقة الغادرة ، التي يغلب على الظن أنها من وسوسات بعض أعوانه الخبيثاء . . وقد كان الجزاء من نفس العمل تقريباً ، فقد انتهر ابن ذى النون الفرصة وعاد إلى مهاجرة قرطبة سنة ٤٦٧ هـ وقتل سراج الدولة بن المعتمد الذي كان يحكمها من قبل والده . . حقيقة قد تمكن ابن عباد بعد ثلاث سنوات من استعادة قرطبة بجيش ضخم وبعد معركة ضارية ، وعين ابنه المأمون حاكمها ، ولكن المدينة كان مصيرها السقوط بعد ذلك في أيدي المرابطين سنة ٤٨٤ هـ ، كما كان مصير ابنه المأمون القتل . وهكذا فقد المعتمد اثنين من أبنائه ثمناً لهذه المغامرة .

كذلك قام ابن عباد بمغامرة أخرى كلفته الكثير ، ففي عام ٤٧١ هـ جهز جيشاً لفتح مرسية بإلحاح وزيره وصديقه الشاعر المغامر ابن عامر ، وتعاقد مع أمير برشلونة على إمداده بالجنود المرتزقة لقاء مبلغ من المال . ولكن الحملة فشلت أول الأمر ، فعاد ابن عامر إلى مرسية ثانية مستعيناً هذه المرة بمؤازرة عبد الرحمن ابن رشيق قائد حصن بلج ، فاستسلمت المدينة ، وتولى ابن عامر إدارتها من قهل المعتمد ، ولكنه كخامر طامع أراد بعد حين أن يستقل بها ، وظهرت منه بوادر تدل على نواياه ، فما زال به ابن عباد حتى قبض عليه وسجنه في إشبيلية ثم قتله بيده سنة ٤٧٧ هـ .

على أن سياسة المعتمد في علاقته بالدول الإسبانية المتأخرة كانت هي الأخرى تتسم بالتردد والاضطراب ، ولا تأخذ الشكل الجاد الحازم . فقد حدث سنة ٤٧٠ هـ أن قام ألفونسو السادس بحملة على إشبيلية ملأت القلوب رعباً ، فلم يجد المعتمد سبيلاً إلى رده إلا دفع الإتاوة لمدة عامين ، ثم عقد معه معاهدة تم بموجبها تزويد المعتمد بالمرتزقة الإسبان مقابل جزية سنوية . . وكان هذا التهادن مع الملك الإسباني مما ساعد على تمكينه من مخططة في الاستيلاء على الأراضي الأندلسية ، حتى سقطت طليطلة الحصينة في يده سنة ٤٧٨ هـ

بعد أن ظلت قرناً تحت راية العروبة . .

وبعد سقوط طليطلة بدأ المعتمد - كغيره من ملوك الطوائف - يستشعر الخطر الإسباني ويدرك الخطأ الذي وقع فيه بالانهماك في اللهو، وتبديد الجهد في التناحر، وغض الطرف عن العدو الخارجي . وهنا التفت إلى الشمال الإفريقي فرأى دولة إسلامية قوية ، هي دولة المرابطين التي على رأسها القائد القوي يوسف بن تاشفين . فرأى - مع بقية ملوك الطوائف - أن يستنجد بهذه القوة الإفريقية الفتية - فجاء ابن تاشفين إلى الأندلس بجيش قوى . ونازل مع الأندلسيين جيش ألفونسو في موقعة « الزلاقة » وهزمه، ثم غادر الأندلس بعد أن منحها قوة كان من المفروض أن يستغلها ابن عباد وغيره من ملوك الطوائف . .

ولكن سلوك ابن عباد - وغيره من هؤلاء الملوك الصغار - لم يتغير . حيث ظل بعيداً عن الجدية ومواجهة الخطر الإسباني الذي يحاول التهام الأراضي الأندلسية العربية جميعاً . . وهنا وجد ابن تاشفين الفرصة قد حانت لانتزاع الأندلس من يد ملوك الطوائف الذين على شاكلة المعتمد ، وضمها إلى دولته في أفريقيا . فهذا في نظره أول من سيطرة الإسبان عليها وضمها إلى دولتهم . وهكذا عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس من جديد سنة ٤٨٤ هـ ، وكان قد عبر بعد سنة « الزلاقة » مرة ثانية سنة ٤٨١ هـ ولكنه لم يحسم الموقف كما حسمه في هذه المرة الأخيرة . فقد سار إلى غرناطة واستولى عليها ، ثم وزع قواته إلى أقاليم مختلفة من الأندلس للاستيلاء عليها ، وجعل قاعدته الرئيسة مركزاً للاستيلاء على إشبيلية .

وقد فقد المعتمد ابنين من أبنائه أثناء استيلاء المرابطين على إقاليم الأندلس ، فقد ابنه المأمون في قرطبة كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وفقد ابنه الراضى في

رُندة . أما هو فقد تأهب للدفاع من إشبيلية واستنجد بحليفه ألفونسو الذى أمده بجيش لم يستطع الوصول إلى عاصمة ابن عباد ، بل أدركه المرابطون قرب قرطبة فهزموه . واضطر ابن عباد إلى النزول بقواته كلها للدفاع عن نفسه وعن ياديه ، ولكن المرابطين كانوا أكثر عدداً وعتاداً فهزموه ، وقتلوا ابنه مالكا بين يديه ، فاضطر إلى التسليم بعد أن قاوم قدر طاقته ، وبعد أن استبان عاقبة كل أخطائه ، فأغمد سيفه ، ونزل من القصر إلى الأسر ، ووضع في يده القيد ، وسيق هو وبقيّة أهله ، فحُملوا في سفائن سارت في الوادى الكبير ، ومنه توجهت إلى طنجة في إفريقيا ، ثم استقر المقام بابن عباد في سجن أغصت بمراكش وظل به بقية حياته إلى أن توفى سنة ٤٨٨ هـ .

وإذا كانت هذه النهاية المؤلمة نتيجة لمقدمات من سلوك الملك الشاعر وأعماله . فهي لا تخاو مع ذلك مما يثير الإشفاق ويبعث على الأسى ، وخاصة إذا عرفنا أن الرجل لم يكن سيئاً ولا شريراً ، وإنما كان إنساناً حمل ما ليس من طبيعته أن يحمله ، ووجهه إلى مسار كان من الخير له أن يسير في غيره . فهو رجل فنان يحيل إلى التحرر والانطلاق ، وإذا أخذ نفسه بأمر جاد مجهد فلا يمكن أن يكون أعباء الملك وشئون السياسة وقيادة الجيوش . وبرغم موافقه التى لا تتلاءم مع قوة الحاكم وصلابة القائد في كثير من الأحيان ، قد سجل التاريخ له بعض المواقف التى تشرفه كإنسان عرى .

ومما يضاعف الإشفاق على المعتمد ويثير مزبداً من الأسى لأجله . تلك المبالغة في الأذى الذى لقيه على يد ابن تاشفين وهو سجين . فقد جُرد أولاً من كل ما يملك ، وحل إلى سجنه بمراكش فقيراً معدماً ، تاركاً وراءه الثراء الضخم والملك العريض ، بقصوره العديدة وبساتينه البانعة وكنوزه الغنية . ثم وُضع في القيد في كثير من الأحيان وكأنه أحد اللصوص أو السفاحين أو قطاع الطرق . وأخيراً لم يُمنح في سجنه هو وأسرته — أو ما بقى منها — ما يكاد يسد حاجتهم الضرورية :

حتى لبست بناته الثياب الممزقة، وصرن أمامه حافيات، واضطر بعضهن إلى غزل الصوف بالأجر لنيل ما يستعان به على قسوة الحياة. هذا بالإضافة إلى فقد عدد من أبنائه في حملة المرابطين على الأندلس، ووقوع إحدى بناته أسيرة أثناء تلك الحرب، ثم ابتياع تاجر لشبيلي لها، وقزويجها لاسمه بعد استئذان المعتمد إجلالا لذكراه . . .

كل هذا يشعرنا بأن المعتمد الإنسان قد جنى عليه المعتمد الملك، فقد كان — في الحق — إنساناً فناناً لا يستحق كل تلك الألحان من العذاب الذي بلغ بحياته درجة المأساة . .

ومما يجعل مأساة المعتمد تمس القلب أكثر، تعبره بالشعر الخبيد عن جوانب المنفعة بالعبرة. الجياشة بما يثير الرحمة.

فقد أثارته دعوة بعض أعوانه إياه أن يستسلم أول مرابطين: فثارت فيه النخوة الكامنة، وانتفض يستل سيفه ويدافع عن بلده ويقول:

قالوا: الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع ع على في السم النقيع
إن يسلب القوم العدا ملكي وتسلمي الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطبا ع ، أيسلب الشرف الرفيع

وحين انتهى به الأمر إلى الأسر، ونُقل إلى الشمال الإفريقي، وصل إلى موضع كان الأهالي فيه يستقون السماء بعد جفاف أصابعهم، فقال في هذا الموقف:

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم : دمعى ينوب لكم عن الأنواءِ
قالوا حقيقى فى دموعك متنع لكانها ممزوجه بدمـساء

ولما عانى من قسوة الأغلال فى سجنه . قال معبراً عن آلامه المبرحة من
عض قيده :

تَعَطَّفُ فى ساقِي تَعَطَّفَ أَرْقَمِ يُساورها عضا بأنيابٍ ضيغمِ
مخافة من كان الرجال بسية ومن سيفه فى جنة وجههم

وكان فى محبسه وقيده يستثيره الانطلاق . ويهيج شجونه طيف الحرية ،
فإذا رأى طائراً طليقاً غبطه على تلك الطلاقة وراح يقول :

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مررن فى سوارح ، لا سجن يعوق ولا كَيْلُ
ولم تلك - والله المعيد - حسادة ولكن حنيناً ، إنَّ شَكْلِي لها شَكْلُ
فأسرحُ ، لا شملى صديع ولا الحشا وجيع ، ولا عيناى يبيكما ثكل
هنيئاً لها أن لم يُفِرَقَ جميعها ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهلُ
وأنَّ لم تبت مثلى تطير قلوبها إذا اهتز باب السجن أوصلصل القفل
لنفسى إلى لُقبِ الحمام تشوّفُ سوى يُحب العيش فى ساقه حجل
ألا عصم الله القطا فى فراخها فإن فراخى خانها الماء والظل

وسمع قمرية تنوح فهاجه نواحها ، وتذكر فجيئته وراح يقول مقارناً بين
حالتها وحاله :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكرُ مساء ، وقد أخفى على إلفها الدهرُ
وناحت فباحث ، واستراحت بسرهما وما نطقت حرفاً يروح به سر

فأى لا أبكى ؟ أم القلب صخرة
بكى واحداً لم يشجها غير فقدته
وكم صخرة فى الأرض يحرى بها نهر
وأبكى لألاف عبيدهم كُشِرَ
بَنَى صغير ، أو خليل موافق
وَيَحْمَان زَيْنُ للزمان احتواهما
عذرت إذن أن ضن جفنى بقطرة
وأن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
ولمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وحين أقبل عليه العيد فى سجنه . ودخلت عليه بناته يلبسن ممزق الثياب
وفى أيديهن المعزل يغزلن به للناس بالأجر ، ثارت فى نفسه ذكريات الع:
السالف وراح يقول لنفسه :

فيما مضى كنت بالأعياد مشرورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة
فساءك العيد فى أغمات مأسورا
برزن حوك للتسليم خاشعة
يغزلن للناس ، ما يملكن قطميرا
بطآن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مكأ وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلا
برذك الدهر منهيا ومأمورا

ومن أمارات الوفاء الذى يتسم به الشعراء الأصلاء ، تلك الرابطة التى
ظلت تشد طائفة من أصدقاء الشاعر إليه وتشده إليهم ، برغم سجنه وقسوة
الظروف عليه . ومن هؤلاء الشعراء : أبو بكر الداني ، وابن حمد يس الصقلي ،
 وابن عبد الصمد .

وكانت قمة أحزان المعتمد قد تبلورت فى رثائه لنفسه قبل وفاته ، وإبداعه
هذا الرثاء أبياتاً باكية أوصى بأن توضع على قبره . . . وفى هذه الأبيات يقول
وهو لم يزل حيا :

قبر الغريب سقاك الراحُ العادى
 بالحلم ، بالعلم ، بالنعمى إذا اتصلت
 بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا
 بالدهر فى نغم ، بالبحر فى نعم
 نعم هو الحق حابى به قدر
 لم أكن قبل ذلك النعش أعلمه
 كفأك ، فارفق بما استودعت من كرم
 يبكى أخاه الذى غيبت وابلّه
 حتى يجودك دمع الطل منهمرا
 ولا تزال صلاة الله دائمة
 حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
 بالخصب إن أجذبوا بالرى للصادى
 بالموت أحرّ ، بالضرغامه العادى
 بالبدر فى ظلم ، بالصدر فى النادى
 من السماء فوافانى لميعاد . .
 أن الجبال تهادى فوق اعواد
 رواك كل قطوب البرق وعاد
 تحت الصفيح بدمع رائح غاد
 من أعين الزهر ، لم تبخل بإسعاد
 على دفتبك ، لا تحصى بتعداد

رحم الله ابن عباد وغفر له ، فقد كان فنه الشعرى من أروع الحسنات ،
 التى يرجى أن يذهبن ما كان له كملك من سيئات .

أمية بن أبي الصلت الأندلسي

العبقرية العلمية والموهبة الأدبية

بين كل طوائف الأندلسيين يبرز عدد غير قليل من الأدباء الموهوبين . وقد برز بين أطباء الأندلس بحاصة أدباء مرموقون ، يمكن أن بلغت النظر من بينهم أناس بلغ بهم النبوغ في الطب والأدب مبلغاً محيراً ، حتى لا يكاد يعرف الدارس لأنارهم وحياتهم أين يضعهم ، أفى الأطباء الأدباء ؟ أم مع الأدباء الأطباء ؟ وذلك لاتصاح النبوغ وعظمة النتاج في الطب والأدب على السواء .

ويمكن أن نأخذ مثالا لهؤلاء الأطباء الأدباء المحيرين من أبناء الأندلس « أمية بن عبد العزيز الداني » الذي يطلق عليه كذلك « أمية بن أبي الصلت الأندلسي » ، وهو — كما يُرى — مشتبه الاسم مع الشاعر المشرق القديم « أمية ابن أبي الصلت » . غير أنه يفرق بينهما بإلحاق لقب « الداني » بصاحبنا الطبيب . أو إلحاق لقب « الثقفي » بالآخر المشرق ، فصاحبنا الطبيب الأندلسي من بلدة « دانية » الأندلسية ، على حين يُنسب الآخر المشرق إلى قبيلة « ثقيف » إحدى الأصول العربية المشرقية . .

وقد عاش أديبنا الأندلسي الشاعر حياة حافلة بالنصال والارتحال ، موزعة بين اليسر والعسر ، فكانت حياة غنية خصبة ، مفعمة بالحركة ثرية بالنتاج ! . فقد ولد سنة ٤٦٠ هـ ببلدة دانية في شرق الأندلس ، ونشأ بها في عهد ملوك الطوائف . ومعروف أن « دانية » كانت تحت حكم العامريين في تلك الفترة ، ثم تحت حكم بني هود ، إلى أن انتزعها المرابطون . ومعروف أيضاً

أن « دانية » في ذلك العهد كانت إحدى العواصم العلمية بالأندلس . أى أنها كانت بيئة ثقافية صالحة لينشأ بها هذا الوليد الواعد « أمية بن عبد العزيز » . وقد تلقى بالفعل على شيوخ « دانية » أصول العلوم العربية والإسلامية . كما تلقى قدراً لا بأس به من العلوم العقلية . ولأمر ما ترك أمية « دانية » ورحل إلى إشبيلية في عهد المعتمد بن عباد . ومعروف أنها كانت من أعظم العواصم الأندلسية ازدهاراً بالفن ، وبخاصة الأدب والموسيقى . ومعروف أيضاً أنها كانت مركزاً من مراكز دراسة العلوم . وبخاصة الطب .. ومن هنا يمكن أن نتصور ما كان لتلك المدينة المزدهرة علماً وفناً من تأثير في تكوين أمية وإنضاج ثقافته وتنوعها . غير أن إشبيلية والأندلس كلها كانت في عهد قلق وضعف في أواخر سنوات الطوائف ، كما كانت مهددة بالإسبان من الشمال ، وبالمرابطين من الجنوب . لهذا لم يقنع صاحبنا بإشبيلية ولا بالأندلس جميعاً ، بل يمم وجهه نحو مصر ، حوالي سنة ٤٨٠ هـ ، وزاول فيها نشاطاً فكرياً وأدبياً كبيراً . غير أن الحظ خانته أثناء مقامه بمصر ، فحدث ما أدى إلى سجنه نحو ثلاث سنوات بالقاهرة . ذلك أن السلطان الفعلي بمصر حينذاك كان للوزير الأفضل بن بدر الجمالي . وكان رجله ، في الإسكندرية هو القاضي ابن حديد . وحدث أن جاءت إلى مياه الإسكندرية سفينة محملة بالنحاس ، وقد أصيبت السفينة بعطب وغاصت في المياه . ولما كان أمية في الإسكندرية حينذاك ، ولما كان عارفاً بالهندسة — ضمن معارفه العلمية المتنوعة — فقد تكفل بتعويم السفينة من جديد وإنقاذ حمولتها ، وتعهّد بذلك للقاضي ابن حديد ، الذي تعهد بدوره للوزير الأفضل بالقاهرة .

وأعد أمية آلات هندسية معينة . وربط السفينة بحبال خاصة ، واستخدم نحو مائة وخمسين من الرجال الأشداء في جذب الحبال ، فطفت السفينة وأوشكت المحاولة أن تنجح ، لولا أن تكاثرت الناس على الشاطئ ، واشتركوا في عملية الجذب دون نظام ، مما أدى إلى انقطاع الحبال وغوص السفينة ثانية ، ولصابة كثير من

الناس بإصابات مختلفة نتيجة لوقوع بعضهم على بعض . . . وغضب القاضي ابن حديد، ووبخ أمية، فلم يقبل الإهانة . فرفع الولى الأمر إلى الوزير الأفضل - مع ما يؤغر صدره بطبيعة الحال - فأمر بالقبض على العالم الأندلسى الأديب ، وإرساله إلى القاهرة حيث سجن .

غير أن هذا الحادث وما أعقبه من سجن لا يشوه الوجود المشرف لأمية على أرض النيل . فقد تفاعل مع البيئة العلمية والأدبية بمصر تفاعلاً خصباً . فناظر العلماء ، وعلم التلاميذ ، وعمل في ديوان الإنشاء . وشارك في شتى ألوان النشاط العلمى والفنى وخاصة الطب والفلك ، والكتابة والشعر . كما ألف أعمالاً ممتازة من بينها « الرسالة المصرية » التى تحدث فيها عن كثير من عادات المصريين وتقاليدهم ، كما عرض للبيئة المصرية وكثير من علماءها وأدبائها . . . كذلك من بين مؤلفاته في مصر « الوجيز » في علم الهيئة ، و « رسالة العمل بالإصطربلاب » ، وكتاب « الأدوية المفردة » في الطب . وكتاب « تقويم الذهن » في المنطق ، إلى غير ذلك من الكتب . .

وفي سنة ٥٠٠ هـ - أوبعد ذلك بسنوات قليلة - ترك أمية مصر إلى تونس . حيث نزل بالمهدية . وكانت تونس حينذاك تحت حكم بنى باديس من قبائل صنهاجة ، وكانت ككثير من بلاد الشمال الإفريقى مسرحاً لصراعات شتى بعضها بين القبائل الإفريقية من أبناء البلاد، وبعضها الآخر بين الوجود العربى لإسلامى على تلك الأرض . وبين العدوان « النورماندى » والصليبي عليها . .

ومع ذلك يبدو أن أمية رأى أن الشمال الإفريقى أنسب لإقامته من مصر ، وبخاصة إذا كانت مصر - في تلك الآونة - لم تمنحه السلام الذى كان يحلم به . وهكذا اتخذ أمية « تونس » مستقراً ، وعاش في ظل ثلاثة من حكامها الصنهاجيين ، وهم : يحيى بن تميم ، وعلى بن يحيى ، والحسن بن على .

وفى هذا المستقر الإفريقى ، أكمل أمية ماكتب له من عمر ، ثم مات سنة ٥٢٩ هـ أو نحو هذا التاريخ . كما أكمل مسيرته العلمية والفنية والأدبية ، وأنجز بقية مؤلفاته ، وأعطى هذا العطاء الفنى المنوع المحير ، لأننا أمامه لانتساءل فقط : أكان أمية أديباً يهوى الطب ، أم كان طبيباً يهوى الأدب ، بل نتساءل — ونحن فى دهشة بالغة — أكان مهندساً أم فلكياً أم فيلسوفاً أم مؤرخاً أم موسيقياً أم طبيباً أم أديباً ؟؟ فقد أثر عنه نشاط موفور ونتاج خصب فى كل ميدان من تلك الميادين . حتى أوقع فى الدهشة البالغة ، من عبقريته الفذة ، وموهبته النادرة المتعددة الجوانب . .

إن اجتماع الموهبة الأدبية مع فرع واحد من فروع المعرفة — كأن يكون الرجل مهندساً وأديباً ، أو طبيباً وكاتباً — مما يدعو إلى الإعجاب . فماذا يمكن أن يقال فى هذه الشخصية العربية العجيبة التى مارست كل تلك العلوم والفنون ، على ما بين بعضها وبعض من تناقض أو ما يشبه التناقض فى أقل تقدير ؟ ! .

فى مجال الهندسة أثر عنه كتاب يسمى « الجيز » وآخر يسمى « الاختصار » يقال إنه اختصار لكتاب « إقليدس » . . ولا يمكن أن ننسى فى هذا المجال ، تلك المحاولة التى سجلها له التاريخ . وهى محاولة تعويم سفينة غارقة فى مياه الإسكندرية ، فهى محاولة — رغم انتهائها بالفشل — قد نجحت أول الأمر واستطاع بها أن يجعل السفينة تطفو ، بفضل ما استخدم هذا المهندس العربى من علمه وأدواته . ولولا ما أحاط بالمحاولة من أخطاء خارجة عن إرادته ساعة التنفيذ ، لنجحت وسجلت سبقاً كبيراً لهذه الشخصية العربية العبقريّة ! .

وفى مجال الفلك خلف لنا أمية رسالة فى « العمل بالإصطلاب » منها نسخة مخطوطة فى برلين وأخرى فى ليدن وثالثة فى باريس . كما خلف أيضاً صحيفة جامعة تقوم بها جميع الكواكب ، كما نص على ذلك « بروكلمان » فى ملحق تاريخه المشهور . كل هذا بالإضافة إلى نص جُل من أرخوا لحياة

أمية على أنه كان من كبار العلماء في الفلك . هكذا يقرر الثقة من المؤرخين
بعبارات مختلفة ، كالسيوطي والذهبي وغيرهما .
وفي مجال الفلاسفة والعلوم العقلية قد خاف لنا أمية كتابه «تقويم الدهن» وهو
في المنطق . وقد نشره المستشرق الإسباني « جونثالت بالثيا » سنة ١٩١٥ . وقد
تكون له كتب أخرى تتجاوز المنطق إلى فروع أخرى من فروع الفلسفة .
فقد سجل جبلٌ من كتبها من تقدماء ما يؤكد اشتغاله بالفلسفة . حتى
أصبحت هي أو الحكمة من بين ما يجمع عليه من ألقاب . فقد رصفه ابن
سعيد في كتابه « المغرب » بصفة فيلسوف . ومثله فعل ابن العماد في كتابه
« شذرات الذهب » . . أما ابن خالكان فيقول عنه في كتابه « وفيات الأعيان » :
إنه كان عارفاً بفن الحكمة . .

وأما في مجال التاريخ فقد أثر عنه كتاب اسمه « الديباجة في مفاخر صنهاجة »
وعن كتابات أمية التاريخية ينقل عدد من المؤرخين التاليين له مثل : ابن
الأبار ، وابن عذارى . وابن الخطيب .

وأما في مجال الموسيقى فقد ألف رسالة لعلى بن يحيى بن تميم بن باديس ،
وهي رسالة تقول دائرة المعارف الإسلامية عنها إن أصلها العربي قد فقد . وبقيت
لها ترجمة عبرية محفوظة في باريس . وبالإضافة إلى هذه الرسالة يذكر المؤرخون
أن أمية كان من أعلام الموسيقى علماً وعلاً . بل يذكر ابن سعيد أن أهل
إفريقية قد أخذوا عن أمية الألحان التي هي الآن (أي في القرن السابع الهجري)
بأيديهم . .

وأما في مجال الطب فقد برز أمية ربما أكثر من تبرزه في أي علم آخر .
ويبدو أنه نبغ فيه نبوغاً ملحوظاً جعل ابن سعيد يقول عنه : « قد بلغ في صناعة
الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء » . وقد ألف أمية في الطب عدداً
من الكتب منها : « الأدوية المفردة » ، ومنها أيضاً كتاب « الانتصار لحنين

ابن إسحاق » ، وهو كتاب دافع فيه أمية عن حنين وانتصر له من عالم آخر ، هو على بن رضوان .. وفي « الرسالة المصرية » إشارات طبية بارعة تدل على تمكن أمية من مهنة الطب في صورة متطورة ، فهو مثلاً يوجب على الطبيب الإمام بثقافات أخرى تعينه على عمله الإنساني ، ويجعل في مقدمة هذه الثقافات العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والموسيقى . كما يدعو الأطباء إلى الاهتمام بالروح المعنوية للمريض ، حتى ليدعوا إلى إلحاق بعض رجال الفكاهة بالمستشفيات ، ليرفها عن المرضى وينشطوا نفوسهم ويساعدوا بذلك في عملية العلاج . .

وأما في مجال الأدب فقد تألق أمية كما يتألق أى أديب موهوب محترف بل عمل في جل فروع الأدب والمعرفة في عصره ، فكُتب وشعر . وتنوعت كتاباته كما تفرعت فنون شعره . بل إنه عمل كاتباً رسمياً في ديوان الإنشاء بمصر ، وخلف ديواناً شعرياً كبيراً . .

ومن أهم مابقى من آثاره الأدبية نثراً « الرسالة المصرية » . ومن أهم مابقى من آثاره الشعرية ، مجموعة ضخمة حفظها العماد الأصمغاني في كتابه المعروف « خريدة القصر » . أما ديوانه الشعري نفسه فلا يزال غير معروف المصير .

ومن خلال ما بين أيدينا من نثر أمية نستطيع أن نقرر أنه كان ناثراً متمكناً مجوداً ، ونثره يميل إلى الجزالة مع اليسر ، وإلى التجويد مع الابتعاد عن التعقيد . وهو نثر توشيه الزينة البلاغية المتقنة غير النابية ولا المفتحة ، كما تتخلله اقتباسات واستشهادات تدل على سعة الإمام بالتراث ، وقوة المنشئ على استغلال محفوظه العظيم . ولعل النموذج التالي يوضح سمات نثر أمية وهو سطور من رسالته المصرية يوضح فيها سبب ارتحاله عن الأندلس قائلاً : « كنت إبان عصر فيه الشباب مونتق ، وغصن الصبا موزق ، إذ لمتي مسودة ولما وجبى رونق . ممن

ساحه الدهر بغفلة من غفلاته ، وتجاوى له عن غفوة من غفواته ، فعاش آمن
السرب ، سائق الشرب ، لا يفرغ من أدب يرود رياضه ، ويرد حياضه ، إلا
إلى طرب يعمر ميدانه ، ويسحب ذيوله وأردانه . ثم تلون فقلب لى ظهر مجنه ،
وسقانى دردى دنه ، فتدارك ما أغفله ، واسترد ما بذله . واضطر إلى مفارقة الوطن
والخروج عن العطن . فتماسكت إشفاقاً من مفارقة أول أرض مس جلدى
ترايبها ، وشدت على التائم بها . وجاءت أمور لا تطاق كبار ، فلما لم يمكن
القرار ، ولم يبق إلا القرار ، قلت : ليس لى إلا أن أرى بنفسى كل مرمى ،
وأطرحها كل مطرح .

لأبلغَ عذراً أو أنالَ رغبةً ومُبلغُ نفسٍ عذرها مثل منجج

وسكنتُ إلى البيت المشهور :

تَلَقَّى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنِ هَالَتْ بِهَا أَهْلًا بِأَهْلٍ وَأُوطَانًا بِأُوطَانٍ

ومن خلال ما بين أيدينا من شعر أمية نستطيع أن نقول : إنه كان شاعراً
موهوباً مثقفاً متمرساً يقول الشعر مفتناً فيه . وقد قاله في جل الأغراض المعروفة .
وكان يؤثر الاتجاه المحافظ الجديد ، الذى سبق إليه من الأندلسيين ابن دراج ،
ومن المشاركة البحرى ، والذى يمثل المتنبى قمته الفنية في الشعر العربي القديم
كله .

على أن أمية كان يسير بشعره أحياناً في الاتجاه المحدث ، الذى راد إليه في
المشرق الشاعر العباسى أبو نواس ، ثم انتقل إلى الأندلس ، فكان من أعلامه
— قبل أمية — الشاعر يحيى الغزال . :

وكان أمية — كأكثر الشعراء — يميل إلى الأخذ بالاتجاه المحافظ الجديد ،

حين يكون الموضوع الشعري أقرب إلى المحافظة أو الجدية ، أو حين يكون الموقف يحتم الوقار . أما حين يكون الموضوع من تلك الموضوعات التي ألف المحدثون الخوض فيها كالغزل والدعابة والزهد . أو حين يكون الموقف بعيداً عن اعتبارات الوقار ودواعي الجدل . فإن أمية كان ينجح إلى الاتجاه المحدث . . وهكذا نجد أسلوبه يميل إلى الجزالة وعلو الرنين وفخامة الأداء ، حين يأخذ بالاتجاه المحافظ ، على حين نجد أسلوبه يميل إلى السلاسة وهمس الموسيقى وبساطة الأداء ، حين يتجه وجهة الشعراء المحدثين . .

على أن شعره عموماً يتسم بالوضوح والبساطة وانغنائية ، كما تنعكس عليه أحياناً ثقافته المنوعة ، فتتناثر هنا أو هناك كلمات أو معانٍ طبية أو فلسفية ، أو نحو ذلك مما مرّده إلى الميدان العلمي الذي كان أمية فارساً من فرسانه الكبار . ولعل من أعذب شعر أمية ما قاله في الحكمة معبراً عن تجارب السنين واستشعار حقيقة الزمان والحياة والنفس ، وما تمتلئ به تلك الحقيقة من أسى ومرارة ولوعة . . ومن ذلك الشعر الحكمي قول أمية في الدنيا :

تضايقتنا الدنيا ونحن لها نتهبُ	وتوسّعنا حرباً ونحن لها حاربُ
وما وهبتُ إلا استردت هباتها	وجدوى الليالي—إن تحققت—سلبُ
نؤمل أن يصفو بها العيش ضلة	وهيمات أن يصفو لساكنها شربُ
ألا إن أيام الحياة بأسرها	مراحل نطويها ونحن بها ركبُ

ومن شعره الحكمي أيضاً قوله في الناس :

ولم يَبْقَ في الباقيين حافظ خلة	فعرش واحداً ماعشت تَنْجُ وتسلمُ
فلست ترى إلا صديقاً لموسر	حسوداً لمجدود عدواً لمعدم
وكنّت إذا استبدلت خلا بغيره	كاستبدل سرحان قنسر بأرقم

فجانبهم ما استطعت وأقبل نصيحتي ومن لم يطلع يوما أنا النصيح يندم
فإن لم يكن بد من الناس فالقهم ببشروصن عنهم حديثك واكتم

ومن شعره في الصمود أمام متاعب الناس والزمان قوله :

ياربّ ذي حسد قد زدته كدا إذ رام ينقص من قدرى فما نقص
فإن رخصت ولم أتنق فلا عجب للفضل في زمن النقصان إن رخصا
وإن حبست فخير الطير محبس متى رأيت حداة أودعت قفصا

ومن هذا اللون المنبئ عن خبرة ومعرفة بالدنيا والناس ، وصمود برغم
كل شيء قوله :

متى صفت الدنيا لحر فأبتغي بها طيب عيش أو خلوى من الحزن
وهل هي إلا دار كل ملمة أمض لأحشاء اللبيب من الطعن
وإن هي لانت بعد ذلك فاخشها فإن أشد الطعن طعن القتا اللدن

وواضح مافي شعر أمية من عاطفة حزينة وتشاؤم جريح .. وليس من
الصعب تفسير ذلك ، فأمية قد عانى كثيراً في حياته ، ولقي مصاعب جمّة في
سيرته الطويلة حتى لقد قسم عمره بين أقطار ثلاثة : الأندلس ومصر وتونس ،
بل قد قاده حظه العائر إلى السجن كما عرفنا ، ولم ينل كل ما يستحق من
تكريم لقاء علمه الغزير وفنه الرفيع . بل لم ينل بعض حقه . ومن هنا لانعجب
لهذه النبذة الحزينة في شعره ، لأنها تعبير صادق عن آلام حقيقية ، وتصوير
دقيق لتجارب فعلية . .

ولأن عاطفة أمية أقرب إلى الحزن ، وأدنى إلى الأسى ، قد كان أقدر على
على التعبير عن التجارب الحزينة . ومن هنا برع في غرض شعري كالرثاء .

ولدا نراه يقول في أمه هذا الشعر الصادق الذى ينفذ إلى أعماق القلوب :

وأرسل طرفاً لا يراك فأنطوى على كبد حَرَّى وقلب مكلم
وما أشتكى فقد الصباح لأننى لفقدك فى ليل مدى الدهر مظلم
وماليلُ مَنْ وارى الترابُ حبيبته بأقصر من ليل المحب المتيم
فكم بين راجٍ للإياب وآيس وأين جميل فى الأسى من متم

وواضح فى هذا البيت الأخير أثر ثقافة الشاعر الأدبية والتاريخية ، فهو يضرب مثلاً لفارق من يحب ولكن مع رجاء اللقاء ، بحميل بشينة ، الذى افتقد صاحبه لكن على أمل اللقاء ، كما يضرب مثلاً لفارق من يحب لكن مع اليأس الكامل من أى لقاء فى الدنيا يتم بن تويره ، الذى فقد أخاه مالكا ، وكان لفقده أشد الوقع على نفسه وأقساه .

وفى أبيات أخرى نرى أمية يقول راثياً صديقاً :

سوابقٌ عَبرَنى سحى وفىضى وإن تغض الدموع فلا تغض
دى حد الردى من كان منى بمنزلة الشفاء من المريض
وكم لاقى الردى بطعان سمر وشد سوابق وقراع بيض

وليس يخفى تأثير الشاعر بحرفته كطبيب : حيث ذكر (الشفاء) و(المريض) وجعل إحساس المريض بالشفاء هو ذروة الإحساس الحبيب . .

ومما يعكس ثقافة أمية - أوجانباً منها - قوله فى الإصطرلاب :

جرم إذا ما التمس قيمته جل عن الثبر وهو من صغر
مختصرٌ وهو إذ تفتشه عن مالحِ العلم غير مختصر

حمله وهو حاملٌ فلكاً لو لم يدُرْ بالبنان لم يدُرْ
مسكنه الأرض وهو منبهاً عن جل مافي السماء من تخبر

ومن بديع شعر أمية وصفه لمظاهر الطبيعة ، وذلك مثل قوله في روضة :
خُضِرُ خِثَالِهَا ، رَزَقَ جِدَاوِلَهَا فَاَلْحَسَنُ مَوْثَلَفٌ فِيهَا وَغُتْلَفُ
دَوْحٍ وَظِلُّ يَأْدُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمَا هَذَا بَرْقٌ كَمَا تَهْوَى وَذَا بَرْقُ
يَجْرِي النِّسِيمُ عَلَى أَرْجَائِهَا دَنَفَا وَمَلَوَهُ أَرْجٌ يُشْفِي بِهِ الدَّنَفُ
غَرِيرَةً مِنْ بَنَاتِ الرُّوضِ نَاعِمَةً يَثْنِي مَعَاطِفَهَا فِي السَّنَدَسِ التَّرَفُ

وقد سجل أمية في بعض أشعاره جانباً من العادات المصرية في الاحتفال
بالنيل . كقوله في مهرجان توقد فيه الشموع على صفحة النهر الخالد :
كَأَنَّمَا النِّيلُ وَالشَّمُوعُ بِهِ أَفَقُ سَمَاءٍ تَأَلَّقَتْ شُهُبُهَا
قَدْ كَانَ مِنْ فَضَّةٍ فَصِيرَهُ تَوَقَّدُ النَّارُ فَوْقَهُ ذَهَبُهَا

وحتى هنا يمكن أن نستشف انعكاس ثقافة الشاعر الفلكية ، والطبيعية
والكيمياوية على شعره. تلك الثقافة التي أثرت الصورة الشعرية ومنحتها حيوية لا تخبى.
وبعد ، فهل عرف تاريخ الفكر الإنساني كثيرين من أمثال أمية بن عبد
العزیز الداني ، لا بد لى ، في تنوع معارفه وتشعب مواهبه ؟ لا أظن ، فهو
واحد من تلك الفلوات العبقريّة التي تصنعها السماء أشبه بالمعجزات ، وهيئات
أن تتكرر كثيراً هيئات ! .

أهم مراجع المقال : الأعلام للزركلي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والمغرب لابن سعيد ،
وخرقة النمر لعماد الإصفهاني ، والرسالة المصرية لابن اللست أمية بن عبد العزيز ، وطبقات
الأطباء لابن أبي شيبة ، وشذرات الذهب لابن العماد الصنبل ، والبحث الجانبي
الذي أجده الباحث الكبير السيد / عبد الله الويلوي ، وهو بحث ثال به صاحبه درجة الماجستير
من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة .